سنة الله التي لا تتبدل ولا تتحول

د. أحمد حسن فرحات*

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً. وصلى الله وسلم على خير خلقه، سيدنا محمد بن عبدالله، الذي بلغ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح الأمة، وعلى آله وأصحابه الذين سلكوا طريقه وترسموا خطاه، وعلى من سار على نهجهم من ﴿الذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا أغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا، ربنا إنك رؤوف رحيم﴾. وبعد :

فلقد كثر في هذا العصر الحديث عن السنن الإلهية، وسنن الكون والحياة، وقوانين الطبيعة، وطبائع الخلق، وأنها كلها في مرتبة واحدة من حيث حتميتها وثباتها، وكثيراً ما يستشهدون على ذلك بقوله تعالى : ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً، ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾.

ولما كان مثل هذا التعميم لا يستند إلى فهم دقيق يميز بين السنن التي تحكم الحياة البشرية، والسنن التي تحكم الطبيعة والمادة، ولم يعتمد على دراسة علمية لمفهوم «سنة الله» في القرآن، كان من الطبيعي أن تختلط الأمور، وأن تتغبش الرؤية، وأن يقع الناس في سوء الفهم. وللخروج من ذلك فلابد من دراسه موضوعية لصيغة «سنة الله التي لا تتبدل ولا تتحول» والتي وردت في عدد من الآيات القرآنية، ومحاولة الوصول إلى دلالتها المحددة، التي تمنع من أن يدخل تحتها ما ليس منها. وهو ما نحاوله في هذه الدراسة.

وقد عمدنا في هذه الدراسة إلى بيان أصل «السنة» في اللغة، ومعناها في الشرع. ثم انتقلنا إلى بيان المراد من صيغة «سنة الله» من خلال أقوال العلماء

---

* أستاذ مساعد في قسم الدراسات الإسلامية ـ كلية الآداب ـ جامعة الإمارات العربية المتحدة.

الذين عنوا بالتعريفات. وقد لاحظنا أن صيغة «سنة الله» في القرآن ترد بمعنى شرعي يقابله معنى كوني شامل فتدخل تحته الحياة البشرية، غير أننا لاحظنا أيضاً أن هذا المعنى الكوني المقابل للشرعي ورد في القرآن خاصاً بالحياة البشرية وحدها، بل يمكن القول إنه خاص بسنن التاريخ والاجتماع البشري، وقد شرحنا السنن التي وردت تحت صيغة «سنة الله» باعتبارها سنناً منصوصاً عليها باللفظ أما السنن التي تحكم الحياة البشرية والتي وردت في القرآن بالمعنى فأكثر من أن تحصى، وتعتبر السنن المنصوص عليها باللفظ نماذج لها، وما ينطبق على الأولى ينطبق على الثانية. ومن ثم فحينما عمدنا إلى الحديث عن ثبات السنن وشمولها ومواقف العلماء تجاهها أخرجنا الكلام مخرج العموم بحيث يكون شاملاً للسنن المنصوص عليها لفظاً وغير المنصوص عليها، وربما استشهدنا بنماذج من السنن غير المنصوص عليها لفظاً في مجال الشرح والتوضيح.

وأرجو أن يجد القارىء لهذا البحث بغيته، فلقد أغنيته بما تحصل عندي من أقوال العلماء ومناقشاتهم، ووجهات نظرهم وتحدثت فيه عن السُّنَّة التي لا تتخلف بإجماع العلماء، وعن سنن الكون وطبائع الخلق، وعن سنن الإنسان وسنن الإيمان وعن تدافع السنن وتنازع الأقدار، وختمته بملخص جمع أطراف الموضوع ونظم خيوطه. وعسى أن يكون هذا البحث قد سدّ ثغرة في مجال الدراسات القرآنية، وأسهم في إيضاح ما استهدفته هذه الدراسة، ونسأل الله تعالى أن يكون عملنا هذا قد وافق الصواب والسداد، وجانب الخطل والزلل. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

أصل السُّنَّة:

يرى أحمد بن فارس ـ في معجم مقاييس اللغة ـ أن السِّين والنون أصل واحد مطرد، وهو : جريان الشيء واطراده في سهولة ، والأصل : قولهم : سننت الماء على وجهي، أَسُنُّه سنّاً، إذا أرسلته إرسالاً، ثم اشتق منه : رجل مسنون الوجه، كأن اللحم قد سُنَّ على وجهه. والحمأ المسنون من ذلك، كأنه قد صُبْ صباً.

ثم يقول أحمد بن فارس : ومما اشتق منه «السُّنَّة» وهي السيرة. وسُنَّة رسول الله عليه السلام : سيرته. قال الهذلي :

فلا تجزعن من سُنَّة أنت سرتها فأول راضٍ سُنَّةً من يسيرها

وإنما سميت بذلك لأنها تجري جرياً.

ومن ذلك قولهم : امض على سَنَنك وسُنَنك، أي : وجهك.

وجاءت الريح سنائن، إذا جاءت على طريقة واحدة»(١)

ويرى الراغب الأصفهاني — في مفرداته — أن «السُّنَن» جمع «سُنَّة» و«سُنَّة الوجه» : طريقته. و«سُنَّة النبي» : طريقته التي كان يتحراها(٢)».

ويرى العلامة عبدالحميد الفراهي الهندي أن «السُّنَّة» : هي طريق قوم، فإذا نسبت إلى شخص واحد، كان المراد أنه «الإمام (٣)».

السنة في الشرع :

يقول الفيروز أبادي : وإذا أطلقت ـ اي السنة ـ في الشرع — فإنما يراد بها : ما أمر به النبي ﷺ أو نهى عنه أو ندب إليه قولاً وفعلاً مما لم ينطق به الكلام العزيز. ولهذا يقال أدلة الشرع : الكتاب والسنة. أي : القرآن والحديث. وفلان متسنن. أي : عامل بالسنة(٤).

وليس من قصدنا ـ هنا — الحديث عن السنة بالمعنى الشرعي، وإنما قصدنا بيان المراد بالصيغة القرآنية «سُنَّة الله» والتي وردت في عدد من الآيات القرآنية.

---

١ ـ معجم مقاييس اللغة : ٣/ ٦٠ ـ ٦١.

٢ ـ المفردات في غريب القرآن : ٢٤٥.

٣ ـ مفردات القرآن للفراهي : ٤٥.

٤ ـ بصائر ذوي التمييز : ٣/ ٢٦٧.

سُنَّة الله :

يرى الراغب الأصفهاني أن «سنة الله» تعالى ـ قد تقال لطريقة حكمته، وطريقة طاعته، نحو «سنة الله التي قد خلت من قبل» «ولن تجد لسنة الله تبديلاً، ولن تجد لسنة الله تحويلاً». فتنبيه على أن فروع الشرائع وإن اختلفت صورها، فالغرض المقصود منها لا يختلف ولا يتبدل، وهو تطهير النفس وترشيحها للوصول إلى ثواب الله تعالى وجواره(١)».

ويرى العلامة عبد الحميد الفراهي الهندي أن السنة إذا نسبت إلى الرب كان المعنى : انها طريق عامة يجري بها أمره في عباده، كما قال : «سنة الله التي قد خلت في عباده(٢)». ويذكر الفراهي في مكان آخر أن «سنة الله» : هي الطريق المرعية في أفعال الله تعالى، وهي طريق العدل والرحمة(٣)».

ولاشك أن ما عناه الفراهي بقوله : «طريق عامة يجري بها أمره في عباده شامل للطاعة والحكمة التي أشار إليها الراغب الأصفاني بدليل ما قاله في مكان آخر من أنها الطريق المرعية في أفعال الله تعالى، وهي طريق العدل والرحمة. فالعدل والرحمة عيان في التشريع كما هما مرعيان في كل أفعال الله تعالى التي يجري بها أمره في عباده.

وبذلك يتضح الارتباط بين أصل المعنى اللغوي للسنة والذي سبق أن نقلناه عن ابن فارس «جريان الشيء واطراده في سهولة» وبين ما انتهى إليه معنى «سنة الله» والتي هي «الطريق المرعية في أفعال الله تعالى وهي طريق العدل والرحمة» حيث يشير المعنى اللغوي إلى جريان الشيء جرياناً مطرداً، وهو نفس المعنى لـ «الطريق المرعية» والتي تفيد الاطراد على وتيرة واحدة.

هذه فكرة مجملة عن أصل كلمة «السنة» ومعناها في الشرع، ومعنى

---

١ ـ المفردات : ٤٢٩/ ولابد من الإشارة إلى أن استشهاد الراغب بالآيات التي استشهد بها لم توافق كلها مواضعها. وكان هناك آيات أخر أولى منها سنذكرها في ثنايا هذا البحث.

٢ ـ المفردات للفراهي : ٤٥

٣ ـ القائد إلى عيون العقائد : ١٦٥.

صيغة «سنة الله» كما وردت في الكتب التي تعنى بتعريف المفردات القرآنية وتحديدها.

وفي الصفحات التالية دراسة لهذه الصيغة «سنة الله» من خلال الآيات التي وردت فيها وذلك لاجتلاء معناها وبيان المراد بها، وما يمكن أن يكون مشمولاً بها أو خارجاً عنها، كذلك لابد لنا من وقفة للتأمل في مدى ثبات السنن الإلهية، وهل هي حتمية لا تتخلف أو أنها قابلة للتبديل والتحويل. ومن الله نستمد العون والسداد.

سنن تاريخية :

أول ما يلاحظه الباحث في صيغة «سنة الله» القرآنية ـ انها تذكر وكأنها خاصة بسنن التاريخ، والمقصود بذلك، أنها لم تستعمل في القرآن إلا في هذا المجال، وهذا لا يعنى عدم وجود سنن غيرها، ومن ثم تقترن غالباً بالإشارة إلى الأمم السابقة كما في الآيات التالية :

﴿ويهديكم سنن الذين من قبلكم﴾ ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل﴾ ﴿سنة من قد أرسلنا قبلك﴾ ﴿سنة الله التي قد خلت من قبل﴾ ﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾ ﴿إلا أن تأتيهم سنة الأولين﴾ ﴿وقد خلت سنة الأولين﴾ ﴿فقد مضت سنة الأولين﴾ ﴿فهل ينظرون إلا سنة الأولين﴾ ﴿سنة الله التي قد خلت في عباده﴾.

وانما قص الله علينا قصص من قبلنا من الأمم لتكون عبرة لنا، فنشبه حالنا بحالهم، ونقيس أواخر الأمم بأوائلها، فيكون للمؤمن من المتأخرين شبه بما كان للمؤمن من المتقدمين، كما قال تعالى لما قص قصة يوسف مفصلة، وأجمل قصص الأنبياء، ثم قال : ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب، ما كان حديثاً يفترى﴾ — أي : هذه القصص المذكورة في الكتاب ليست بمنزلة ما يفترى من القصص المكذوبة، كنحو ما يذكر في الحروب من السير المكذوبة.

وقال تعالى لما ذكر قصة فرعون : ﴿فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾. وقال في سيرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مع

أعدائه ببدر وغيرها: ﴿قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين، والله يؤيد بنصره من يشاء، إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار﴾ وقال في شأن بني النضير: ﴿... يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾. فأمرنا أن نعتبر بأحوال المتقدمين علينا من هذه الأمة وممن قبلها من الأمم. وذكر في غير موضع أن سنته في ذلك سنة مطردة وعادة مستمرة... وأخبر سبحانه أن دأب الكافرين من المتأخرين كدأب الكافرين من المستقدمين، فينبغي للعقلاء أن يعتبروا بسنة الله وأيامه في عباده، ودأب الأمم وعاداتهم (١)».

سنن التاريخ شاملة لسنن الاجتماع:

لقد قلنا إن «سنة الله» في القرآن تكاد تكون موقوفة الاستعمال على سنن التاريخ بناءاً على ما قدمناه من الآيات الشاهدة على ذلك، ومن ثم فلابد لنا من بيان مقصودنا بسنن التاريخ وأنها شاملة لسنن الاجتماع، ذلك أن سنن التاريخ مبنية على سنن الاجتماع، ومن ثم فلا يمكن الفصل بينهما، وإذا كانت نتائج الأحداث تجري طبقاً لسنن معينة، فلأن الأحداث أيضاً تجري طبقاً لسنن معينة، ومن ثم فنحن نستفيد من سنن التاريخ لنصنع الأحداث وفقاً للنتائج التي شهدناها من النتائج المترتبة على أحداث سابقة. وعلى هذا فالتاريخ ليس خاصاً بالماضي، وإنما هو يشمل الحاضر والمستقبل، بمعنى أن سننه تنطبق على الحاضر والمستقبل كما تنطبق على الماضي، لكن لما كان الإنسان الذي يعيش في الحاضر، لم يشهد الحاضر إلا شهوداً جزئياً، وفي مرحلة زمنية قصيرة، لا تكفي لترتب النتائج على الأسباب، وكذلك المستقبل بالنسبة لمن يعيش في الحاضر فإنه غيب، لذلك كله كان توجيه القرآن النظر إلى تاريخ الأمم السابقة، وإلى الأحداث التي عاصرها المسلمون الأولون والتي ترتبت فيها النتائج على الأسباب.

وهذا يعني أن القرآن الكريم يقيم للتاريخ بمعناه الواسع اعتباراً كبيراً، فهو حصيلة التجارب الإنسانية الطويلة، ومختبر الباحثين والمحللين الذي ينبغي أن تتوجه إليه العناية لاستفادة الدروس والعبر، واكتشاف السنن التي تحكم

---

١ ـ الفتاوي لابن تيمية: ٢٨ / ٤٢٥ وما بعدها باختصار.

سير الأمم في تطورها، وبيان دروب نموها وازدهارها ومنحنيات انحطاطها واندثارها.

سنن الأنبياء والمتابعين لهم من أهل الإيمان :

ومن سنن التاريخ التي حظيت في القرآن الكريم بعناية خاصة، سنن الأنبياء ومن تابعهم من أهل الإيمان، ذلك أن فترات الأنبياء التاريخية تمثل الذرى والقمم التي جعلها الله قدوة للبشرية كلها، ومن ثَمَّ قال تعالى : ﴿يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم﴾ (١). وقد قال الطبري في تفسير هذه الآية :«وليسددكم سنن الذين من قبلكم من أهل الإيمان بالله وأنبيائه ومناهجهم»(٢).

كذلك فإن سنن الأنبياء السابقين يمكن أن تكون سنناً للأنبياء اللاحقين، ومن ثم فقد قص الله على نبيه محمد ﷺ أخبار من سبقه من الانبياء ثم قال له :﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ (٣). كما خص بعض سنن الأنبياء بالذكر نظراً لأهميتها بالنسبة للظروف التي مرت بالنبي ﷺ. ومن هذه السنن رفع الحرج عن النبي ﷺ فيما فرض الله له :

وذلك حينما تحرج النبي ﷺ من إظهار ما فرض الله له من زواج زينب وأخفاه في نفسه خشية مقالة الناس : ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾(٤) فبين الله في هذه الآية أن من سنة

---

١ ـ النساء : ٢٦. ٢ـ الطبري : ٥/٢٦ ـ ٢٧. ٣ ـ الأنعام : ٩٠.

٤ ـ الأحزاب : ٣٨ ـ ٣٩/ وقد بين أبو جعفر أحمد بن الزبير الغرناطي الحكمة من قوله ﴿وكان أمر الله قدراً مقدوراً﴾ عقيب قوله ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل ﴾ في كتابه «ملاك التأويل» خلاصتها : إن الرسول ﷺ حين تكلم المنافقون في شأن زواجه من زينب وقالوا تزوج امرأة ابنه أدركه الحياء ﷺ وخشي مقالتهم، فقيل له : لا تخش أحداً فإنك إنما جريت في ذلك كله على ما بين الله لك من الشرع الذي جعله سبحانه سبيلك ودينك الذي تدعو إليه، وطريق من تقدمك من الرسل الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ، فالله أحق أن تخشاه أنت يا محمد، ولا تُصغ إلى أحد، ولا تستحي منه ـ فإنك على صراط مستقيم. فقد وضح ما أخفاه في نفسه وهذا الذي أبداه تعالى، ألا ترى أنه سبحانه قد وعد أن يبدي ما أخفاه ﷺ في نفسه، فهل ترى في تلك القصة خلاف =

الله في الرسل أن لم يجعل عليهم حرجاً فيما فرض الله لهم، وأن ما فرضه الله له من الزواج بزوجة متبناه «زيد» هو من هذا القبيل، وأنه ليس بدعاً من الرسل. وأن على الرسل دائما أن يبلغوا رسالات الله، ولا يخشوا أحداً إلا الله، وأن عليه أن يسير على طريقتهم وسنتهم، وذلك في قوله تعالى :

﴿ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له، سنة الله في الذين خلوا من قبل، وكان أمر الله قدراً مقدوراً. الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه، ولا يخشون أحداً إلا الله، وكفى بالله حسيباً﴾.(١) ويرى ابن تيمية أنه لم يقل هنا «ولن تجد لسنتنا تبديلاً» لأنه لا نبي بعد محمد ﷺ(٢). ولأن هذه سنة شرعية لا ترى بالمشاهدة، بل تعلم بالوحي، بخلاف نصره للمؤمنين، وعقوبته للمنذرين، فإنه أمر مشاهد، فلن يوجد منتقضاً» (٣).

ويلاحظ أن «سنة الله» ـ في هذه الآية ـ وقوله : «سنن الذين من قبلكم» ـ في الآية السابقة ـ يراد بهما ما أشار إليه الراغب من معنى «سنة الله» وأنها تطلق على طريق طاعته تعالى، كما أشار إلى أن طاعته المتمثلة بفروع الشرائع وإن اختلفت صورها، فالغرض المقصود منها لا يختلف ولا يتبدل وهو تطهير النفس وترشيحها للوصول إلى ثواب الله تعالى وجواره».

وبناءً على هذا فطريقة الطاعة هذه مرعية في كل ما شرعه الله للأنبياء وأممهم وإن اختلفت صورها وفروعها، علماً بأن الآية التي نتحدث عنها هنا جاءت خاصة بالأنبياء بدلالة قوله تعالى : ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدوراً . الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه...﴾.

= ما نطق به كتابه من قوله تعالى : ﴿فلما قضى زيد منها وطرآزوجناكها﴾، وكانت زينب تفخر بهذا، وتقول لأزواج النبي ﷺ : زوجكن أهلوكن، وزوجني الله من فوق سبع سموات. فهذا إخباره سبحانه وما أبداه مما أخفاه نبيه ﷺ في نفسه، وما سوى هذا فاختلاق...». وانظر : ملاك التأويل : ص/٩٤٩ ـ ٩٥٢ ـ.

١ ـ الاحزاب : ٣٨ ـ ٣٩

٢ ـ جامع الرسائل : ٥٠.

٣ ـ الرد على المنطقيين : ٣٩٠ وما بعدها.

سنة الله في تعريض الرسل للاستفزاز :

ومن السنن التي يذكرها القرآن الكريم تعريض الرسل للاستفزاز من قبل أعدائهم، وذلك في معرض حديثه عن محاولة المشركين استفزاز رسول الله ﷺ ، وذلك في قوله تعالى : ﴿وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها، وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلاً. سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلاً﴾ (١).

وقد اختلف العلماء في معنى «الاستفزاز»» ـ هنا ـ :

فقال الزجاج حاكياً : إن استفزازهم ما أجمعوا عليه في دار الندوة من قتله. والأرض ـ على هذا ـ : الدنيا (٢) ـ وروى مثل ذلك عن الحسن (٣).

وقال أبو حيان : والظاهر أن الآية تدل على مقاربة استفزازه لأن يخرجوه، فما وقع الاستفزاز ولا إخراجهم إياه المعلل به الاستفزاز.

ثم جاء في القرآن : ﴿وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك﴾ أي : أخرجك أهلها. وفي الحديث : ياليتني فيها جذعاً إذ يخرجك قومك. قال : أو مخرجي هم ـ الحديث ـ.

فدل ذلك على أنهم أخرجوه، لكن الإخراج الذي هو علة للاستفزاز لم يقع، فلا تعارض بين الآيتين والحديث»(٤).

ولاشك أن القول الاول أولى بالقبول، لأنه لا يحتاج إلى كل هذا التكلف الذي يحاول فيه أبو حيان الجمع بين النصوص. والذي ألجأه إلى ذلك قوله بأن الاستفزاز، هو الإخراج، ولو أخذ بالقول الأول لكان له فيه عن كل ذلك غناء.

---

١ ـ الإسراء : ٧٦ ـ ٧٧.

٢ ـ البحر المحيط : ٦٦/٦

٣ ـ زاد المسير : ٧٠/٥.

٤ ـ البحر المحيط : ٦٦/٦.

ويشهد للقول الأول قوله تعالى في شأن فرعون وبني اسرائيل :

﴿فأراد أن يستفزهم من الارض، فأغرقناه ومن معه جميعا، وقلنا من بعده لبني إسرائيل : اسكنوا الارض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا﴾(١).

وقد فسر ابن عباس ـ هنا ـ الاستفزاز : بالاستئصال، كما فسره غيره بالخروج إلا أن الخروج قد حصل وذلك باجتيازهم البحر وكان ذلك مطلب موسى عليه السلام «ارسل معي بني اسرائيل ولا تعذبهم»، في حين تتحدث الآية عن إرادة الاستفزاز وأن الغرق حال دون حصوله، **مما يجعل تفسير الاستفزاز بالقتل والاستئصال متعينا.**

وليست محاولة الاستفزاز هذه خاصة برسولنا ﷺ أو بموسى عليه السلام وإنما هي محاولة عامة تعرض لها جميع الرسل ـ صلوات الله عليهم ـ وكما يفهم من قوله تعالى : ﴿سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا، ولا تجد لسنتنا تحويلا﴾ ومما يوضح ذلك أيضا قوله تعالى : ﴿كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، فأخذتهم فكيف كان عقاب﴾ (٢).

وقد قال ابن الجوزي في تفسيره لكلمة «يأخذوه» : فيه قولان : أحدهما : ليقتلوه ــ قاله ابن عباس وقتادة ـ والثاني : ليحبسوه ويعذبوه ـ حكاه ابن قتيبة(٣) .

إلا أننا نرجح هنا أيضاً قول ابن عباس الذي يفسر «الأخذ» بالقتل كما رجحناه سابقاً حينما فسر «الاستفزاز» بالاستئصال. ومما يقوي ذلك قوله تعالى في نفس الآية عن الكافرين : ﴿فأخذتهم فكيف كان عقاب﴾ وهنا لا يحتمل «الأخذ» إلا معنى واحداً وهو «الإهلاك». وهكذا نرى أن من سنة الله في

---

١ ـ الاسراء : ١٠٤.

٢ ـ غافر : ٥.

٣ ـ زاد المسير : ٧/٢٠٧.

رسله أن يعرضهم لاستفزاز أقوامهم، فيحاولون قتلهم ولكنهم لا يلبثون بعد ذلك إلا قليلاً ، فيأخذهم سبحانه أخذ عزيز مقتدر.

سنة الله في إهلاك المكذبين :

يذكر القرآن الكريم أخبار الأمم السابقة، ومواقفها من رسلها وأنبيائها، حيث يستجيب لهؤلاء الرسل والأنبياء طائفة من الناس، في حين تقف في وجه الرسل والأنبياء طوائف أخرى كافرة برسالاتهم مكذبة لهم «وقد قص الله علينا قصصهم لنعتبر بها، ولما في الاعتبار بها من حاجتنا إليه ومصلحتنا، وإنما يكون الاعتبار إذا قسنا الثاني بالأول، وكانا مشتركين في المقتضي للحكم. فلولا أن في نفوس الناس من جنس ما كان في نفوس المكذبين للرسل ـ فرعون ومن قبله ـ لم يكن بنا حاجة إلى الاعتبار بمن لا نشبهه قط. ولكن الأمر كما قال تعالى : ﴿ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك﴾ وكما قال تعالى : ﴿كذلك ما أتى الذي من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون﴾ وقال تعالى : ﴿كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم﴾ وقال تعالى : ﴿يضاهئون قول الذين كفروا من قبل﴾. ولهذا قال النبي ﷺ : «لتسلكن سنن من قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه، قالوا : اليهود والنصارى؟ قال : فمن ؟! وكلا الحديثين في الصحيحين,,»(١).

ومن هنا نجد في القرآن الكريم دعوة صارخة إلى السير في الأرض(٢)، والنظر في آثار الأمم السابقة المكذبة، والتي تشهد بصحة هذه السنن وثباتها، وذلك كما في قوله تعالى : ﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين (٣)».

ويشرح القرآن الكريم في آيات ومواضع أخرى عاقبة هؤلاء المكذبين وسنة الله في إهلاكهم وذلك كما في قوله تعالى : ﴿**ولقد أرسلنا من قبلك في**

---

١ ـ الفتاوي لابن تيمية : ١٤/٣٢١ وما بعدها.

٢ ـ يراجع في ظلال القرآن : ٧/١٢٤ ــ ١٣٤ تعقيباً على قوله تعالى : ﴿قل سيروا في الأرض..﴾.

٣ ـ آل عمران : ١٣٧.

شيع الاولين. وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون. كذلك نسلكه في قلوب المجرمين. لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين﴾(١).

وواضح أن هذه الآية تهدد مشركي العرب بأن تنفذ فيهم سنة الاولين الذين كذبوا رسلهم فأهلكهم الله، ولقد أقسم العرب المشركون أيمانا مغلظة على أن يكونوا أهدى من اليهود والنصارى فيما لو جاءهم رسول من عند الله وها هو الرسول قد جاءهم، ولكنهم بدلا من أن يستجيبوا له أذا هم ينفرون استكبارا ومكرا فعليهم أن ينتظروا اذن سنة الاولين **﴿واقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من أحدى الامم، فلما جاءهم نذير ما زادهم الا نفورا. استكبارا في الأرض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء الا بأهله، فهل ينظرون إلا سنة الاولين، فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا﴾(٢).**

كما أن هناك آية تغريهم بغفران ما سبق منهم من كفر وتكذيب وحرب لرسول الله ﷺ فيما لو آمنوا به وتركوا محاربته، وتهددهم بأن تسري عليهم سنة الأولين أن عادوا للكفر والمحاربة **﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف . وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين﴾(٣).**

وسنة الله في أخذ المكذبين قد تكون بعذاب مباشر من الله سبحانه كما يذكر لنا القرآن عن كثير من الأمم السابقة كعاد وثمود وقوم لوط. وقد تكون بقتال المؤمنين لهم وانتصارهم عليهم كما حدث لمشركي العرب وغيرهم، وقد جمع النوعان في قوله تعالى :

﴿وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم الا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلا﴾(٤). قال ابن الجوزي في تفسيره (٥) : فان قيل : اذا كان المراد بسنة الأولين العذاب، فما فائدة التكرار

---

١ ـ الحجر : ١٠ ـ ١٣.
٢ ـ فاطر : ٤٣.
٣ ـ الانفال : ٣٨.
٤ ـ الكهف : ٥٥.
٥ ـ زاد المسير : ٥/١٥٨.

بقوله : ﴿**أو يأتيهم العذاب قبلا**﴾ ؟ فالجواب : أن سنة الأولين أفادت عذابا مبهما يمكن أن يتراخى وقته وتختلف انواعه. واتيان العذاب قبلا : أفاد القتل يوم بدر. قال مقاتل : سنة الاولين : عذاب الامم السابقة. أو يأتيهم العذاب قبلا : أي عيانا قتلا بالسيف يوم بدر.

كما أن هناك آية تطلب إلى المشركين أن يسيروا في الأرض ويعتبروا بمصائر الأمم التي كانت اكثر منهم وأشد قوة والتي لم تؤمن حتى رأت العذاب ، وأن ذلك الإيمان لم يفدها شيئاً، وأن ما جرى لهذه الأمم إنما هو «سنة الله في عباده» :﴿**أفلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الارض، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون. فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون. فلما رأوا بأسنا قالوا : آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين، فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون**﴾(١).

سنة الله في النصر : أما سنة الله في نصر أوليائه على أعدائه في القتال فقد وردت في قوله تعالى : ﴿**ولو قاتلكم الذين كفروا لولّوا الادبار، ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا. سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا**﴾(٢) والآيتان تبينان نتائج القتال فيما لو حدث هذا القتال يوم الحديبية بين المؤمنين والمشركين.

وكذلك يقول القرآن الكريم عن أهل الكتاب : ﴿**لن يضروكم الا أذى، وان يقاتلوكم يولوكم الادبار ثم لا ينصرون**﴾(٣).

ويقول عن المنافقين وتأييدهم لأهل الكتاب : ﴿**لئن أخرجوا لا يخرجون معهم، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم، ولئن نصروهم ليولّن الادبار ثم لا ينصرون**﴾(٤). ويقول عن المنافقين أيضا: ﴿**لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا**

---

١ ـ غافر : ٨٢/ ٨٥.
٢ ـ الفتح : ٢٢ ـ ٢٣.
٣ ـ آل عمران : ١١١.
٤ ـ الحشر : ١٢.

قليلاً. ملعـونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيـلاً. سنة الله في الذيـن خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾.(١)

ويرى ابن تيمية أن السنة في هذه الآية تتضمن أن كل من جاور الرسول ﷺ متى أظهر مخالفته مكن الله الرسول من إخراجه كما أصاب من قبلهم من أهل الكتـاب فإن الله أخـرجهم، فإن لم ينتـه عن مخالفته هـؤلاء المذكورون في الآية بل أظهروا الكفر كما أظهره أولئك أخرجنـاهم كما أخرجناهم بخلاف ما إذا كتموه. ثم يقول ابن تيمية : وهذه في أهـل العهد والمنافقين. وقد يقال : هي لهم مع المؤمنين أبداً»(٢) يريد بذلك أن هذه الآية نزلت في أهل العهد من اليهود الذين وادعهم رسول الله ﷺ وفي المنافقين الذين كانوا يجاورونه في المدينة، ثم يستدرك ابن تيمية فيقول : وقد يقـال : ﴿هي لهم مع المؤمن أبداً﴾ لأن العبرة بعموم اللفـظ لا بخصوص السبـب، وبذلك تكـون هذه السنـة ماضيـة أبداً في المنافقين وأهل العهد المجاورين للمؤمنين في كل زمان ومكان.

ويقول ابن تيمية تعليقاً على هذه الآية في الفتاوي : وهذه الآية أنزلها الله قبل الأحزاب وظهور الإسلام وذل المنافقين، فلم يستطيعوا أن يظهروا بعد هذا ما كـانوا يظهرونه قبـل ذلك ـ قبل بـدر وبعدها وقبل أحـد وبعدها ـ فـأخفوا النفـاق وكتموه، فلهـذا لم يقتلهم النبـي ﷺ. وبهذا يجيب مـن يقتل الـزنادقـة ويقول : إذا أخفوا زندقتهم لم يمكن قتلهـم ولكن إذا أظهروها قتلوا بهذه الآية بقوله : ﴿ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيـلاً. سنة الله في الذين خلوا من قبـل، ولن تجد لسنـة الله تبـديلاً﴾. قـال قتادة : ذكـر لنا أن المنـافقين كانـوا يظهرون ما في أنفسهم مـن النفاق فأوعدهم الله بهذه الآيـة، فلما أوعدهم بهذه الآية أسروا ذلك وكتموه «سنـة الله في الذين خلوا من قبـل» يقول : هكذا سنة الله فيهم إذا أظهروا النفاق. قال مقاتل بن حيان : قوله «سنة الله في الذين خلوا من قبل، يعني : كما قتل أهل بدر وأسروا»(٣).

---

١ ـ سورة الاحزاب ٦٠ ـ ٦٢.

٢ ـ جامـع الرسائل : ٥١ بشيء من التصرف في التقـويم والتأخير نتيجة لاضطـراب ترتيب الناسخ.

٣ ـ الفتاوي : ١٣/٢٠.

ثبات السنن الالهية :

من خلال النصوص المتقدمة نرى كثيرا منها ينتهي بقوله تعالى : ﴿**ولن تجد لسنة الله تبديلا**﴾ كما نجد نصين من تلك النصوص ينتهي أحدهما بقوله تعالى : ﴿**سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا، ولا تجد لسنتنا تحويلا**﴾ وينتهي الآخر بقوله تعالى : ﴿**فهل ينظرون الا سنة الاولين، فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلا**﴾.

وأول ما يلفت الانتباه تخصيص هاتين الآيتين من دون بقية الآيات بقوله تعالى : ﴿**ولا تجد لسنتنا تحويلا**﴾، ﴿**ولن تجد لسنة الله تحويلا**﴾. واذا نظرنا في سياق الآية الاولى نرى أن سياقها في شأن الرسل ـ صلوات الله عليهم حيث تضاف السنة اليهم ﴿**سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا**﴾ فهو أمر لابد أن يتعرض له كل رسول وأنت من جملتهم ولا يمكن تحويل ذلك عنهم.

ويرى ابن تيمية أن المراد بالتبديل : أن تبدل بخلافه، وأن المراد بالتحويل أن تحول من محل إلى محل، وذلك مثل استفزازه من الأرض ليخرجوه، فإنهم لا يلبثون خلفه إلا قليلاً، ولا تتحول هذه السنة بأن يكون هو المخرج وهم اللابثون، بل متى أخرجوه خرجوا خلفه، ولو مكث لكان هذا استصحاب حال، بخلاف ظهور الكفار، فإنه كان تبديلاً لظهور المؤمنين بظهور الكفار إذ كان لابد من أحدهما.

وأما أهل المكر السيء والكفار فلابد لهم من العقوبة لا يبدلون بها غيرها، ولا تتحول عنهم إلى المؤمنين، وهو وعيد لأهل المكر السيء انه لا يحيق إلا بأهله ولن يتبدلوا به خيرا، يتضمن نفياً وإثباتاً، فلهذا نفى عنه التبديل والتحويل»(٢) وكثيرا ما يستدل الكتاب والمفكرون بمثل هذه الآيات على ثبات السنن الالهية وحتميتها وعدم تخلفها، علما بأنهم يتوسعون في مدلول كلمة

---

١ ـ الاحزاب : ٦٠ ـ ٦٢.

٢ ـ جامع الرسائل : ٥٥ ـ ٥٦.

«السنن» حتى تشمل القوانين الطبيعية والكونية في حين يستعملها القرآن الكريم خاصة بسنن التاريخ كما بينا ذلك من قبل.

فإلى أي حد تصح فكرة السنن وحتميتها، والى أي مدى يمكن التوسع في مفهوم السنن؟ وما هو موقف العلماء والمفكرين من ذلك؟ هذا ما سنعالجه في الصفحات التالية.

التوسع في إطلاق «سنة الله» :

يرى المعلم عبد الحميد الفراهي الهندي أن أول من استعمل كلمة «سنة الله» بالمعنى الشامل لطبائع الخلق كلها هم أصحاب رسائل إخوان الصفاء ثم تابعهم على ذلك صاحب كتاب «حجة الله البالغة»(١) ولي الدين الدهلوي، كما

١ ـ ولدى رجوعنا إلى كتاب حجة الله البالغة، وجدناه يقول : «اعلم أن بعض أفعال الله يترتب على القوى المودعة في العالم بوجه من وجوه الترتب شهد بذلك النقل والعقل، قال رسول الله ﷺ : «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك والسهل والحزن والخبيث والطيب، وسأله عبدالله بن سلام ما ينزع الولد إلى ابيه أو إلى أمه فقال : إذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة نزعت». ثم يقول الدهلوي : ولا أرى أحداً يشك في أن الأماتة تستند إلى الضرب بالسيف أو أكل السم وأن خلق الولد في الرحم يكون عقب صب المني، وأن خلق الحبوب والأشجار يكون عقب البذر والغرس والسقي، ولأجل هذه الاستطاعة جاء التكليف وأمروا ونهوا، وجوزوا بما عملوا فتلك القوى منها خواص العناصر وطبائعها، ومنها الأحكام التي أودعها الله في كل صورة نوعية، ومنها احوال عالم المثال والوجود المقضي به، هنالك قبل الوجود الأرضي، ومنها أدعية الملأ الأعلى بجهد هممهم لمن هذب نفسه أو سعى في إصلاح الناس وعلى من خالف ذلك، ومنها الشرائع المكتوبة على بني آدم وتحقق الإيجاب والتحريم فإنها سبب ثواب المطيع وعقاب العاصي، ومنها أن يقضي الله تعالى بشيء فيجر ذلك الشيء شيئاً آخر لأنه لازمه في سنة الله وخرم نظام اللزوم غير مرضي، والأصل فيه قوله ـ ﷺ : «إذا قضى الله لعبد أن يموت بأرض جعل له اليها حاجة. فكل ذلك نطقت به الأخبار وأوجبته ضرورة العقل». ثم يقول الدهلوي : «واعلم أنه إذا تعارضت الأسباب التي يترتب عليها القضاء بحسب جرى العادة ولم يمكن وجود مقتضيتها أجمع ، كانت الحكمة حينئذ مراعاة أقرب الأشياء إلى الخير المطلق وهذا هو المعبر عنه بالميزان في قوله ـ ﷺ ـ «بيده الميزان يرفع القسط ويخفضه» وبالشأن في قوله تعالى : ﴿كل يوم هو في شأن﴾ ثم الترجيح يكون تارة بحال الأسباب أيها أقوى وتارة بحال الآثار المترتبة =

يذكر ابـن تيمية(١) أن السهر وردي المقتول ذهـب إلى أن العالم لا يتغير بل لا تزال الشمس تطلع وتغرب لأنها عادة الله، وأنه احتج على ذلك بالآيات السابقة التي تنص على أن سنة الله غير قابلة للتغير والتبديل.

تعليل الفراهي للقائلين بأن الطبائع من سنة الله وردوده عليهم:

وقد علل الفـراهي ما ذهب إليه القـائلون بأن طبائع الخلق مـن سنة الله وأنها ثابتة بعدة ظنون :

ـ فقد ظنوا أن التبديل في الخلق محال لقـول الله تعالى : ﴿لا تبديل لخلق الله﴾.

ـ وظنوا أن قـوله تعالى ﴿لا تبديـل لخلق الله﴾ كقولـه تعالى ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾.

ـ وظنوا أن طبائع الخلق كلها تدخل تحت «سنة الله».

ـ وظنـوا أن «طبائع الخلق» ثـابتة لما علمـوا من التجربـة أن الأشياء لا تتحول عن آثارها.

وقد رد الفراهي هذه الظنون وبين بطلانها واحدة واحدة فقال :

« ـ ظنوا أن التبديل في الخلق محال لقولـه تعالى ﴿لا تبديل لخلق الله﴾. وهذا ظـن باطـل مشاهدة، فـإن الخلق يتبـدل، وكذلك بـاطل نصـاً كما جاء في القـرآن ﴿ولآمرنهم فليغيرن خلـق الله﴾ ــ (٤/١١٩) وكما جاء في الحديـث : «لعن الله الواشمـة والمستوشمة المغيرات خلق الله» ثم سيـاق الكلام للنهى عن التبديل، فلو كـان محالاً لم يكن محلاً للنهي، وإنما هو كقوله تعـالى : فلا رفث

= أيها انفع وبتقديم باب الخق على باب التدبير، ونحو ذلك من الوجوه. فنحن وإن قصر علمنا عن إحاطة الأسبـاب ومعرفة الأحق عند تعارضها نعلم قطعاً أنه لايوجد شيء إلا وهو أحق بأن يوجد، ومن أيقن بما ذكرنا استراح من إشكالات كثيرة» .

ـ حجة الله البالغة : ١/١١ ـ ط : دار المعرفة ـ.

١ ـ يـراجع كـلام ابن تيميـة في جامـع الرسـائل : ٥٢ والرد على المنطقيين : ٣٩٠ ــ ٣٩١ ويراجع كلام الفراهي في القائد إلى عيون العقائد : ١٦٥.

ولا فسوق ولاجدال في الحج﴾(١) .ثم يقول في رد الظن الثاني :
ـ وظنوا أنه كقوله تعالى : ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾(٢)

وهذا ظن باطل، فإن قوله تعالى ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ ظاهر في أن المراد من الفطرة هنا هي فطرة الإنسان التي ينبغي أن لا يجروا خلافها وإذاً هي الدين القيم. وأما سنة الله فهي الطريق المرعية في أفعال الله تعالى هي طريق العدل والرحمة، وههنا هي نصر أنبيائه وقمع الظالمين إذا بلغوا آجالهم». ثم يقول في رد الظن الثالث :

ـ وظنوا أن المراد من سنة الله طبائع الخلق كلها فالنار مثلاً لابد أن تحرق الإنسان فعادات المخلوقات غير متبدلة، وعلى هذا أنكروا المعجزات، وغرهم اقوال من سمى هذه الطبائع سنة الله، واول من استعمل كلمة «سنة الله» في هذا المعنى هم اصحاب رسائل اخوان الصفاء وتبعهم صاحب «حجة الله البالغة»، وتأويل القرآن إنما يصح حسب استعماله»(٣). ثم يقول الفراهي في رد الظن الرابع :

ـ «الأشياء إما هي منفعلات : فلابد أنها تحت إرادة فتصرفها عن آثارها إن شاءت. وإما هي فاعلات ـ فهن أنفسهن ذوات إرادة ـ فإن شئن صرفن فعلهن عن شيء فلا إشكال في خرق عادات الأشياء، ولكنهم لما رأوا أن الأشياء لا تتحول عن آثارها أيقنوا بأنها خالية عن الإرادة، فلابد لهم أن يوقنوا بأنها تحت إرادة مريد، فإن قالوا إن هذا المريد جعل الآثار لازمة كما علمنا من التجربة، قلنا إن التجربة لا تثبت اللزوم إنما تثبت العموم» (٤). وبمثل هذه الردود القوية على تلك الظنون الباطلة تتهاوى تلك المقولة التي تجعل «طبائع الخلق» من سنة الله التي لا تتغير ولا تتبدل.

رد ابن تيمية على السهر وردي وأمثاله :

أما ابن تيمية فقد عرض لاحتجاج السهر وردي وأمثاله من المتفلسفة

---

١ ـ ٩٧/٢٢.
٢ ـ ٦٢/٣٣.
٣ ـ القائد إلى عيون العقائد : ١٦٥.
٤ ـ القائد إلى عيون العقائد : ١٦٨.

بآيات السنن على صحة ما ذهبوا إليه من اعتبار العادات الطبيعية من سنن الله الثابتة وأبطل مزاعمهم واعتبر احتجاجهم بالقرآن نوعاً من تحريف الكلم عن مواضعه وان القرآن يصرح بنقيض مذهبهم في جميع المواضع. ودلل على ذلك وبينه من وجوه متعددة :

ـ أحدها : أن يقال : العادات الطبيعية ليس للرب فيها سنة لازمة، فإنه قد عرف بالدلائل اليقينية أن الشمس والقمر والكواكب مخلوقة بعد أن لم تكن، فهذا تبديل وقع. وقد قال تعالى : ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات﴾ (١). وأيضاً فقد عرف انتقاض عامة العادات، فالعادة في بني آدم ألا يخلقوا إلا من أبوين وقد خلق المسيح من أم، وحواء من أب، وآدم من غيرأم ولا أب. وإحياء الموتى متواتر مرات متعددة، وكذلك تكثير الطعام والشراب لغير واحد من الأنبياء والصالحين عليهم السلام.

ـ وأيضاً فعندكم تغيرات وقعت في العالم كالطوفانات الكبار التي فيها تغيير العادة». ثم يقول : وهذا خلاف عادته التي وعد بها وأخبر أنها لا تتغير كنصرة أوليائه وإهانة أعدائه فإن هذا علم بخبره وحكمته : أما خبره فإنه أخبر بذلك ووعد به، وهو الصادق الذي لا يخلف الميعاد.

وأما حكمته : فهذا يوافق طرق جميع طوائف أهل الملل الذين يقولون : مقتضى حكمته أن يكون العاقبة والنصر لأوليائه دون أعدائه ــ كما قد بسط ذلك في مواضع» ثم يؤكد ابن تيمية عدم امتناع تبديل وتحويل الأمور الطبيعية سواء قلنا بوقوعها بمحض المشيئة أو بحسب الحكمة والمشيئة فيقول :

«وأما الأمور الطبيعية فإما أن تقع بمحض المشيئة على قول، وإما أن تقع بحسب الحكمة والمشيئة على قول. وعلى كلا التقديرين فتبديلها وتحويلها ليس ممتنعاً كما في نسخ الشرائع وتبديل آية بآية، فإنه إن علق الآية بمحض المشيئة فهو يفعل ما يشاء، وإن علقها بالحكمة مع المشيئة فالحكمة تقتضي تبديل بعض

---

١ ـ سورة ابراهيم آية ٤٨.

١ ـ جامع الرسائل : ٥٣ ـ ٥٤.

ما في العالم، كما وقع كثير من ذلك في الماضي وسيقع في المستقبل، فعلم أن هذه السنن دينيات لا طبيعيات»(١).

هل يمكن تعميم السنة لتشمل الطبيعيات ؟:

ثم يبين ابن تيمية أن قوله تعالى : ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ يشهد لرأي الجمهور القائلين بالحكمة، وأنه يمكن أن يعم كل سنة له في خلقه وأمره في الطبيعيات والدينيات، لكن الشأن أن تعرف سنته، وأنها إذا نقضت فإنما تنقض لا ختصاص تلك الحال بوصف امتازت به عن غيره، فلم تكن سنته مع ذلك الاختصاص. وإنما تكون سنته مع عدمه.

وكأن ابن تيمية يريد بهذا أنه لو سلم بالعموم في قوله «ولن تجد لسنة الله تبديلاً». لكان الجواب ما ذكره من أن التغيير الذي حدث لا يكون داخلاً في السنة وإنما يكون خارجا عنها. ولكن الأولى ألا نجعلها عامة، لأن سياق الآيات يمنع من ذلك. وعلى كل فلننظر إلى وجهة نظر ابن تيمية كما يوضحها فيما يلي :

ولكن في قوله تعالى ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ حجة للجمهور القائلين بالحكمة فإن أصحاب المشيئة المجردة يجوزون نقض كل عادة، ولكن يقولون : إنما نعلم ما يكون بالخبر. وقوله تعالى : ﴿فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾ دليل على أن هذا من مقتضى حكمته، وأنه يقضي في الأمور المتماثلة بقضاء متماثل لا بقضاء مخالف، فإذا كان قد نصر المؤمنين لأنهم مؤمنون كان هذا موجباً لنصرهم حيث وجد هذا الوصف، بخلاف ما إذا عصوا ونقضوا إيمانهم كيوم أحد فإن الذنب كان لهم، ولهذا قال : ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ تعم كل سنة له، وهو يعمم سنته في خلقه وأمره في الطبيعيات والدينيات.

لكن الشأن أن تعرف سنته وحقيقة هذا أنه إذا نقض العادة فإنما

---

١ ـ جامع الرسائل : ٥٤.

ذلك الاختصاص، فسنته مع عدمه. كما نقول : إذا خصت العلة لفوات شرط أو وجود مانـع، وكما نقول في الاستحسان الصحيح : هو تخصيـص بعض أفراد العام بحكم يختص به لامتيازه عن نظائره بوصف يختص به».

والسنة : هـي العادة في الأشيـاء المتماثلة.... فـإنه سبحـانه إذا حكـم في الأمور المتماثلة بحكم فإن ذلك لا ينتقض ولا يتبدل ولا يتحول، بل هو سبحانه لا يفرق بين المتماثلين، وإذا وقـع تغيير فذلك لعـدم التماثل. وهذا القـول أشبه بأصول الجمهور القـائلين بالحكمة في الخلق والأمر، وأنه سبحـانه يسوي بين المتماثلين ويفرق بين المختلفين كما دل القرآن على هذا في مواضـع كقوله تعالى : ﴿**أفنجعل المسلمين كالمجرمين**﴾ (١).

ومن هذا البـاب صارت قصص المتقدمين عبرة لنا ولـولا القياس واطراد فعله وسنتـه لم يصح الاعتبـار بها. والاعتبار إنما يكـون إذا كان حكـم الشيء حكم نظيره، كالأمثال المضروبة في القرآن، وهي كثيرة»(٢).

القول الراجح في نظر ابن تيمية :

سبق أن بينا رأي ابن تيمية في أن السنـن الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل هي ما أخبر الله به في كتابه من نصر أوليائه وخذلان أعدائه، أو هي بتعبير آخر مـا يمكن نسميـه بسنن التاريـخ والاجتماع، وأن ثبات السنـة الطبيعية لا يمكن الاستـدلال عليه مـن خلال الآيـات النافيـة للتبديـل والتحويـل في السنة الإلهية كما ذهب إلى ذلـك السهرودري وغيره، غير أن الفقرة السابقـة من قول ابن تيمية أجازت تعميم السنة الثابتة بحيث تكون شاملة للسنن الطبيعية بنوع من التأويل، وقلنا بأن الأولى عدم اللجـوء إلى هذا التأويل لأن مورد الآيات كان أصلاً في غير السنن الطبيعية. ولعل هذا الرأي الـراجح في ما نقل عن ابن تيمية في كثير من المواطن، ويمكن تـأكيد ذلك بما ذكره ابن تيمية في كتـابه «الرد على المنطقيين» حيث جاء فيه :

«.. وقد أراد بعض الملاحدة كالسهروردي المقتول في كتابه «المبدأ والمعاد»

---

١ ـ القلم ٣٥.

٢ ـ جامع الرسائل : ٥٤ ـ ٥٥.

الذي سماه «الألواح العمادية» أن يجعل له دليلاً من القرآن والسنة على إلحاده، فاستدل بهذه الآية ﴿ولن تجد لسنة اللـه تبديلاً﴾ على أن العالم لا يتغير، بل لا تزال الشمـس تطلع وتغـرب لأنها عادة اللـه. فيقال لـه : انخراق العـادات أمر معلوم بـالحس والمشاهدة بـالجملة، وقد أخبر في غير مـوضع أنه سبحـانه لم يخلق العالم عبثـاً وباطلاً بل لأجـل الجزاء، فكان هذا من سنتـه الجملية، وهو جزاؤه الناس بـأعمالهم في الدار الآخرة. كما أخبر به من نصر أوليـائه وعقوبة أعدائه. فبعث النـاس للجزاء هو من هذه السنـة التي هي عواقـب أفعال العباد بإثابة أوليائه ونصرهم على الأعداء. فهذه هي التي أخبر أنه لن يوجد لها تبديل ولا تحويل كما قال : ﴿فهـل ينظرون إلا سنة الأولين﴾ ﴿فلن تجد لسنـة الله تبديـلاً﴾ ﴿ولن تجد لسنة الله تحويـلاً﴾ وذلك لأن العادة تتبع إرادة الفـاعل، وإرادة الفاعل الحكيم هي إرادة حكيمة، فتسوي بين المتماثلات، ولن يوجد لهذه السنة تبديـل ولاتحويل : وهو إكرام أهـل ولايته وطاعته ونصر رسلـه والذين آمنوا على المكـذبين. فهذه السنـة تقتضيها حكمتـه سبحانـه، فلا انتقـاض لها، بخلاف ما اقتضت حكمته تغييره، فذاك تغييره من الحكمة أيضاً..(١)».

ولاشك بـأن مثل هـذا النص يقطـع بمراد ابـن تيمية إذ يجعـل محاولة السـهروردي تعميم ثبات السنن الإلهية ـ والاستدلال على ذلك بالقرآن والسنة ـ استـدلالاً على إلحاده. فهو إذن لا يمكن أن يقبـل بمثل هذا الإلحاد الـذي هو تحريف للكلم عن مواضعه.

رشيد رضا.. والتوسع في مفهوم السنة :

ومن الذيـن توسعوا في إطلاق مفهـوم «سنة الله» لتكون شـاملة للسنن الطبيعية وغيرها رشيد رضـا في تفسيره «المنار» وهو بذلك يتابـع من قبله من المتوسعين، ويمكن أن نستشهد لذلك بنموذجين مما جاء في تفسيره :

ـ أثناء حديثه عن العلوم التي يحتاجها المفسر قال :

«ثالثها : علم أحوال البشر : فقد أنزل الله الكتاب وجعله آخر الكتب وبين

---

١ ـ الرد على المنطقين : ٣٩ ـ ٣٩١.

فيه ما لم يبينه في غيره. بين فيه كثيراً من أحوال الخلق وطبائعهم، والسنن الإلهية في البشر، وقص علينا أحسن القصص عن الأمم وسيرها الموافقة لسننه فيها. فلابد للناظر في هذا الكتاب من النظر في أحوال البشر في أطوارهم وأدوارهم ومنا شيء اختلاف أحوالهم من قوة وضعف، وعز وذل وعلم وجهل، وإيمان وكفر، ومن العلم بأحوال العالم الكبير علويه وسفليه. ويحتاج في هذا إلى فنون كثيرة من أهمها التاريخ بأنواعه...

فقد أجمل القرآن الكلام على الأمم وعن السنن الإلهية، وعن آياته في السموات والأرض وفي الآفاق والأنفس. وهو إجمال صادر عمن أحاط بكل شيء علماً. وأمرنا بالتفكر والنظر والسير في الأرض لنفهم إجماله بالتفصيل الذي يزيدنا ارتقاءً وكمالاً. ولو أكتفينا من علم الكون بنظرة في ظاهره، لكنا كمن يعتبر الكتاب بلون جلده إلا بما حواه من علم وحكمة (١)».

- والنموذج الثاني يبين لنا فيه لزوم العقوبة للأمة المتنكبة عن سبيل الحق فيقول :

«.. إذا ضلت الأمة سبيل الحق، ولعب الباطل بأهوائها، ففسدت أخلاقها، واعتلت أعمالها، وقعت في الشقاء لا محالة، وسلط الله عليها من يستبدبها ويستأثر بشؤونها، ولا يؤخر لها العذاب إلى يوم الحساب، وإن كانت ستلاقي نصيبها منه أيضاً. فإذا تمادى بها الغي وصل بها إلى الهلاك، ومحا أثرها من الوجود، ولهذا أعلمنا الله لنعتبر ونميز بين ما به تسعد الأقوام، وما به تشقى. أما في الأفراد فلم تجر سنة الله بلزوم العقوبة لكل ضال في هذه الحياة الدنيا، فقد يستدرج الضال من حيث لا يعلم، ويدركه الموت قبل أن تزول النعمة عنه، وإنما يلقى جزاءه : ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله...﴾(٢).

سيد قطب.. وموقفه من تعميم السنة وحتميتها :

يستعمل سيد قطب «سنة الله» بمعناها الشامل الذي سبقت الإشارة إليه،

---

١ - تفسير المنار : ١/ ٢٠ - ٢١ الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٢ - تفسير المنار : ١/ ٧٩ - ٦٠ الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ولكنه يتحفظ على آلية السنن وحتميتها بما يتناسب مع طلاقة المشيئة الإلهية، وفي ذلك يقول :

«.. فليست هناك جبرية آلية في الخلق والإنشاء، ولا في الحركة والحدث، والنواميس التي يراها الناس مطردة في الكون ـ بوجه عام ـ ليست قوانين آلية أنشأها الله وسلطها لتعمل بذاتها آليا وحتمياً. ولكنها تطرد ـ على الجملة ـ لأن قدر الله في شأنها يطرد ـ في غير جبرية آلية فيها، وفي غير حتمية على الله ـ سبحانه ـ في اطرادها، إنما هي مشيئته وحكمته بهذا. فيجري قدره بما يشاء. وهكذا تقع المعجزات الخارقة لما يسمى بالقوانين الطبيعية. فالنار قد أودعها الله خاصية حرق الأجسام، كما أودع الأجسام خاصية الاحتراق بالنار، ولكن مشيئته جرت بقدر غير هذا في حادث إبراهيم عليه السلام :

﴿قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم. وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين﴾(١).... وفي تصور المسلم لا يقوم «السبب» ولا العادة، ولا المألوف من النواميس، حاجزاً بين العبد وإرادة الله به، وبالوجود كله من حوله، في كل حالة، وفي كل لحظة.. فالمشيئة الإلهية في تصوره ـ كما هي في الحقيقة ـ طليقة من وراء تلك النواميس.. ومع هذا فالمسلم يتعامل مع النواميس الثابتة، ويأخذ بالأسباب التي تتلاءم مع هذه النواميس، لأنه مأمور أن يأخذ بها ـ واخذه بها عبادة وطاعة ـ ويتعامل مع سنة الله، وهو يعلم أن لاتبديل لسنة الله، لابسبب حتميتها على الله، ولا بسبب جبرية آلية فيها هي ذاتها، ولكن الله أراد ألا يبدلها، وجرى قدره باطرادها ـ إلا أن يشاء غير ذلك ـ مع تعلق كل حادث ينشأ بقدر خاص ينشئه.. وفي هذا يختلف التصور الإسلامي تماماً ويتميز عن كل تصور آخر.. كما أن إيحاء هذا التصور يختلف ويتميز. فهو لا ينتهي إلى إهمال الأسباب، أو إقامة النشاط بلا قواعد، ولا إلى جهل النواميس وإهمال التعامل معها، كما أنه لا ينتهي إلى إغلاق الأبواب دون مشيئة الله الطليقة، وقدره الجديد، أمام واقع الأسباب والنواميس، ولا يختنق بالجبريات الآلية،

---

١ ـ مقومات التصور الإسلامي : ٦٢ ـ ٦٣.

والحتميات الطبيعية والتاريخية ! ﴿لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً﴾(١).

وعلى الرغم من قوله بعدم الحتمية في السنن مع كونها مطردة عموماً، فإنه يرى أن سنة الله في نصر أوليائه وخذلان أعدائه هي السنة التي لا تتخلف ـ كما سيأتي بيانه ـ.

محمد قطب.. وموقفه من حتمية السنن :

يفرق الأستاد محمد قطب في التسمية بين السنن الإلهية والسنن الكونية، فيجعل الأولى خاصة بالحياة البشرية، ويجعل الثانية خاصة بقوانين الكون، ويرى أن السنن الإلهية التي تجري من خلالها الحياة البشرية دقيقة كل الدقة، منتظمة أشد الانتظام، لا تحيد ولا تميل، ولا تجامل ولا تحابي، ولا تتأثر بالأماني الطيبة، إنما تتأثر بالأعمال، وهي في دقتها وجديتها كالسنن الكونية سواء بسواء..»(٢).

ويضيف الأستاذ محمد قطب ملاحظة أخرى على عمل السنن الإلهية، وهي «إن السنن الإلهية لا تعمل فرادى، إنما تعمل مجتمعة، وتكون النتيجة الواقعية هي حصيلة السنن العاملة كلها في آن واحد، أو بالأحرى حصيلة تعامل الإنسان مع مجموعة السنن التي تعرض لها في أثناء حركته في الأرض..»(٣).

ويلاحظ على كلام الأستاذ محمد قطب ـ هنا ـ أنه يجعل انتظام السنن الإلهية التي تجري على الحياة البشرية كانتظام السنن الكونية المادية سواءً بسواء، وهذا يعني أنه يرى عدم تخلف السنن الكونية، ومن ثم يشبه بها السنن الإلهية من حيث الثبات وعدم التخلف، ولكنه يستدرك في مكان آخر من كتابه فيقول : «قد يخرق الله السنن الكونية لحكمة يريدها، ولكنه تعالى ثبت

---

١ ـ مقومات التصور الإسلامي : ٦٣.

٢ ـ حول التفسير الإسلامي للتاريخ : ١٢٠

٣ ـ نفس المصدر : ٩٢.

السنن البشريــة بحكمته»(١). ـ وهو يـريد بالسـنـن البشرية ـ هنا ــ : السنن الإلهية التي تحكم الحياة البشرية ـ.

كذلك يفرق الأستاذ محمد قطب بين نـوعين من السنن التي تحكم الحياة البشرية، فهناك : سـنـن عامة ـ وهي الأكثـر عدداً والأوسع مساحـة في التاريخ البشري ـ تشمـل «الإنسان» كلـه، مؤمنـه وكافـره وإن كانـت تحدد للمؤمنين طريقهم، وعاقبة أمرهم، إذا استقـاموا على الإيمان، كما تحدد للكافرين طريقهم وعاقبـة أمرهم، وتبين الفـارق الواسع بين حياة هـؤلاء وحياة هؤلاء في الـدنيا والآخرة جميعاً.

وسنن خاصة ـ وهي الأقل ـ تقع للمؤمنين وحدهم أو للكافرين وحدهم، ولكنها رغم خصوصيتها سنن جارية، أي أنها تتكرر للمؤمنين ولا تقع للكفار، أو تتكرر للكفـار ولا تقع للمـؤمنين»(٢). وهكذا نرى أن الأستاذ محمـد قطب يفرق في التسميـة بين نوعين من السنن : «الإلهيـة» : وهي التي تحكـم الحياة البشريـة، والكونيـة : وهي القـوانين الطبيعية التـي تحكم المادة، وأن الانتظـام والانضباط موجود في كلا النوعين بمرتبة واحدة، لكنه يرى أن القوانين الكونية قد يخرقها الله لحكمة يريدها، وكأنه يريد بذلك تفسير الخوارق والمعجزات، أما السنن الإلهية التي تحكم الحياة البشرية فقد ثبتها الله ومن ثم فلا تخضع لهذا الاستثناء، كما يـرى أن هناك سنناً جاريـة مطردة خـاصة بـالمؤمنين، وسنناً جارية خاصة بالكافرين، ولكنها أقل في مساحتها من السنن العامة التي تجري على الجنس البشري بمؤمنيه وكافريه.

السنة التي لا تتخلف :

من كل ما تقدم يتبين أن السنة التي لا تتغير، ولا تتبدل ولا تتحول، هي سنن التاريخ والاجتماع ومنها سنة اللـه في نصر أوليائه وخذلان أعدائه، وهذه الحقيقة موضع اتفاق وإجماع عند من تكلمـوا في هذا الموضوع، ولنذكر هنا ما

---

١ ـ نفس المصدر : هامش (٢) ص : ١٢٠.

٢ ـ نفس المصدر : ٨٦ ـ ٨٧.

يدل على ذلك من أقوالهم بالنسبة لسنة الله في النصر والتمكين : ـ يقول ابن تيمية بعد أن يستعرض الآيات التيَ جاءت بلفظ «سنة الله» والتي ذكرناها سابقاً ـ: «فهذه سنة الله وعادته في نصر عباده المؤمنين ـ إذا قاموا بالواجب ـ على الكافرين، وانتقامه وعقوبته للكافرين الذين بلغتهم الرسل بعذاب من عنده أو بأيدي المؤمنين، هي سنة الله التي لا توجد منتقضة قط..»(١).

ـ ويقول الفراهي تعقيباً على آيات «سنة الله» :

«وأما سنة الله، فهي الطريق المرعية في أفعال الله تعالى ـ هي طريق العدل والرحمة ـ وههنا هي : نصر أنبيائه وقمع الظالمين إذا بلغوا آجالهم»(٢)... وكونه تعالى واجب الوجود يلزم دوام سنته ودوام الخير ودوام الرحمة...»(٣).

ـ ويقول سيد قطب :

«وسنة الله التي لا تتخلف هي التمكين في الأرض لأوليائه، المستقيمين على منهجه، وهي التدمير على أعدائه المخالفين عن سنته. وقد يطول الأمر ـ بالقياس إلى عمر الفرد البشري القصير ـ ولكن السنة لا تتخلف. وحين ننظر إلى الماضي نرى هذه السنة واضحة، بينما قد تخفى معالمها علينا حين ننظر إليها في المدى القريب. وتتضافر الشواهد القرآنية والشواهد التاريخية على تقرير هذه الحقيقة التي تعتبر قاعدة أساسية من قواعد التفسير الإسلامي للتاريخ»(٤).

ويبدو أن هذا الرأي هو ما استقر عليه سيد قطب في هذه السُّنَّة، وربما كان يرى في السابق أن هناك حادثة واحدة قد تخلفت عن هذه السنة، وهي

---

١ ـ الرد على المنطقيين : ٣٩٠ ـ ٣٩١ باختصار.

٢ ـ القائد إلى عيون العقائد : ١٦٥.

٣ ـ القائد إلى عيون العقائد : ١٦٨.

٤ ـ مقومات التصور الإسلامي : ٣٦٨ ـ ويلاحظ أن آخر ما كتبه سيد قطب هو كتاب «مقومات التصور الإسلامي » ولم يطبع إلا بعد وفاته بسنين.

حادثة «الأخدود» الواردة في سورة البروج(١) وذلك لأن الله لم يذكر في السورة تدميره على الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات، غير أن قوله تعالى في السورة : ﴿إن بطش ربك لشديد﴾ يمكن أن يفهم منه أنه أنزل بأسه بهم، وإن لم يذكر ذلك صراحة، حيث لم يبين أن البطش قد وقع بهم بصريح العبارة.

وأما الآخرون فهم يقولون بحتمية السنن كلها تاريخية أو طبيعية، وذلك بحملهم عدم التحويل والتبديل الوارد في سنن التاريخ على جميع السنن، فهم إذن يقولون بلزوم سنن التاريخ بطريق الأولى.

سنن الكون وطبائع الخلق :

أما سنن الكون وطبائع الخلق، فلم ترد في القرآن بلفظ «السنن» ومن ثم فالأصل ألا تكون مشمولة باللزوم المستفاد من قوله تعالى : ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ ﴿ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾ لأن استقراء استعمال ﴿سنة الله﴾ في القرآن يرينا أنها واردة في سنن التاريخ والاجتماع ومن ثم لا يجوز تعميمها على كل السنن بدلالة النص، لأن الأصل مراعاة مورد الاستعمال، كما لا يمكن أن نجعل اللزوم لسنن الكون بطريق القياس على «سنن التاريخ والاجتماع» لأنه قياس مع الفارق، ويظهر ذلك فيما يلي :

ـ سنن الكون وطبائع الخلق من فعل الله المبني على المشيئة والحكمة، وقد تقتضي المشيئة والحكمة التغيير والتبديل، ومن هنا كانت المعجزات خرقاً لقوانين الكون، وهذا تبديل قد حصل.

ـ أما سنن التاريخ والاجتماع فإنها وإن كانت من فعل الله المبني على المشيئةوالحكمة إلا أن فيها معنى ترتب هذا الفعل على عمل الإنسان من خيرأو شر، ومن ثم كان فيها معنى العدل والجزاء، ومن ثم كان اللزوم فيها من مقتضيات العدل الذي هو صفة ثابتة ودائمة لله عز وجل، ومن ثم أخبرنا الله بأنها لن تتبدل ولن تتحول، لأن من العدل : التسوية بين المتماثلات، والمخالفة بين المختلفات، واطراد التماثل والتخالف وبناءً عل هذا نستطيع أن نقول : إن

---

١ ـ انظر ما كتبه سيد قطب عن هذه السنة في سورة البروج من الظلال.

سنن الكـون وطبائع الخلق ليـس اطرادها لازمـاً، لأن الله لم يخبرنا بلـزومه، ولأنه لا يمكن قياسه على ما أخبرنا بلزومه لوجود الفارق، ولأن الواقع المشاهد والمحسوس أن التغيير والتبـديل فيها ممكـن، والمعجزات الخارقة دليـل واضح على ذلك، ولكننـا مع ذلك نـرى الاطراد فيها غـالباً، والثبـات فيها عامـاً، ولكن اللزوم لادليل عليه، أما الاستدلال على اللزوم بالتجارب العملية التي تترتب فيها الآثار على الأسباب، فـإن هذه التجارب تفيد العموم، ولا تفيد اللـزوم، ومن ثم فلا نستطيـع أن نجزم بـأن التجارب التي ستكـون في المسقبل ستترتـب عليها نفس النتائج التي ترتبت على مثيلاتها مـن التجارب السابقة، وإن كنا نرجح أن تكون كذلك(١).

ومع هذا فيمكن للإنسان أن يتعامل مع هذا العموم المطرد، والذي لايكاد ينخرق إلا في حالات استثنائية.

وهكذا نرى أن الذين جعلوا سنن الكون داخلة تحت السنن التي لا تتبدل ولا تتحول، اضطروا إلى تقييد ذلك بطلاقة المشيئة ليفسروا ذلك الاستثناء الذي يخرق السنن الكونية كالمعجزات. وربما اضطـر بعضهم إلى التعسف في التأويل أو إنكار المعجـزات، ليستقيم له ما ذهـب إليه من لزوم هـذه السنن وربما رأى البعض الآخر أن التغيير والتبـديل الحاصل دليل على أن السنـة لم تتحقق لفقد شرط أو وجود مـانع ومن ثـم فلم تكن سنـة لفوات الشرط أو لوجـود المانع، ولكن مثل هذا القول لايفسر لنا وجود المعجـزات على أية حال. وعلى الرغم من كل مـا قيل في شأن السنن الكـونية من لـزوم أو عموم، فلابد مـن العمل على أساسها ولا ينبغي إهمالها بحجة عدم حتميتها، وبخاصة إذا علمنا أن المعجزات التي تخرق السنن الكـونية قد انتهت بـانتهاء النبوات، مما يجعـل خرق السنن

---

١ ـ يـذكر العقاد في كتـاب «الفلسفة القرآنية» أن التـلازم بين الأسباب والنتائج في الـوقائع الطبيعية ليس تلازماً عقلياً، كتلازم المقدمة والنتيجة في القضايا العقلية.. وإنما هو تلازم المشاهـدة والإحصاء، وغاية مـا نملكه فيه أن نسجـل هذه المشاهدة أو هـذا الإحصاء... فكل مـا هنالك ـــ مما يسمى بـالأسباب الطبيعيـة ـ إنما هو مقـارنات في الحدوث.. ولا تفسير فيها أمام العقل لتعليل الإيجاد.».

انظر : المجموعة الكاملة للعقاد/م٧/ الإسلاميات/٣/ ص : ٢٤.

الكونيـة مستبعداً كما إن إهمال هـذه السنن لن يـؤدي إلا إلى الفوضـى وعدم الاستقرار. وإذا كان الإسلام يوجب العمل بغلبة الظن في الأحكام الشرعية، فمن باب أولى أن يوجبه في السنن الكونية التي تفيد العموم ولا تفيد اللزوم.

سنن الإنسان.. وسنن الإيمان :

خلق الله الإنسـان كما خلق الكون والمادة، ومنحه مـن الطبائع والغرائز والقوى ما يقيـم حياته على هذه الأرض، وجعـل حياته على هذه الأرض لغـاية أكبر من مجرد الاستمرار في الحيـاة ـ كما هو شأن عالم المادة ـ ومـن ثم كان تميزه عن بقية المخلوقات بالعقل والاختيار والقدرة على الفعل والتغيير في حياته طبقاً للوظيفة المختصة به، وهذه الوظيفة محددة بالاستخلاف في الأرض القائم على شريعة الله المنزلة، ومن ثم فالإيمان بهذه الشريعة وتطبيق ما جاءت به من هداية في جميع شؤون الحياة، يدخل تغيراً كبيراً على حياة الإنسان، حتى ليمكن القول إنه يغدو خلقاً آخر بعد دخولـه في الإسلام واهتدائه بتوجيهاته وأحكامه. الأمر الذي يجعل الفارق كبيراً بين الإنسـان المسلم، والإنسان غير المسلم، ومن ثم فإن السنن التي تحكم الحياة الإنسـانية التي لا تخضع لشريعة الإسلام، لا يمكن أن تبقى شاملة للإنسان المسلم دون تعديل بعد أن دخل الإسلام كعنصر معدل ومؤثر في تغيير الإنسان ليكون «الإنسان المسلم».

ويمكن توضيح هذه الفكرة بالأمثلة التالية :

ـ يقـول الله تعالى : ﴿إن الإنسان خلـق هلوعاً . إذا مسه الشر جـزوعاً . وإذا مسَّه الخير منوعاً . إلا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون﴾(١).

ويلاحـظ هنا استثنـاء المسلم المصلي الـدائم على صلاتـه مما فطـر عليه الإنسان مـن الهلع، ومن جـزعه من الشر الـذي يمسه، ومن منعـه الخير الذي يعطى، فكأن الإنسان المسلم أصبح فعـلاً خلقاً آخر بتأثير الصلاة على النقيض من الإنسان المجرد من الإسلام. ومن هنا نجد أن النبي ﷺ كان إذا حز به أمر أو نزلت به شدة فزع إلى الصلاة» نظراً لما لها من التأثير في هذا الجانب.

---

١ ـ المعارج : ١٩ ـ ٢٣.

ـ ويقول الله تعالى : ﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾(١).

فالشح إذن حاضر في النفس الإنسانية، خلقت على هذا، وتستمر عليه، إلا أن يعدل ذلك بشريعة الله عن طريق الزكاة والصدقات التي تطهر المزكي من هذا الشح : ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها..﴾ وهكذا يتحول التكالب على المال والاستئثار به بفعل الشريعة إلى إيثار يقي المسلم من الشح الذي كان حاضراً في نفسه : ﴿والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾(٢) ومثله قوله تعالى : ﴿فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾(٣).

وهكذا فإن «سنن الإنسان» تسري على الإنسان الفطري أو الطبيعي مع جميع غرائزه كما وهبها إليه الله، ولكن سنن الإيمان تسري على «الإنسان المسلم» وهو الذي تخضعه العقيدة الإسلامية إلى عملية شرطية من شأنها الحد من طغيان الغرائز وتنظيمها في علاقة وظيفية مع مقتضيات العقيدة الإسلامية، فالعملية الحيوانية التي تمثلها الغرائز بصورة محسوسة لم تلغ هنا ولكنها انضبطت بقواعد نظام معين.

وفي هذه الحالة يتحرر الإنسان جزئياً من القانون الطبيعي الذي فطر عليه جسده، ويخضع في كليته إلى المقتضيات الروحية التي طبعتها العقيدة الإسلامية في نفسه : بحيث يمارس حياته في هذه الحالة الجديدة حسب قانون الروح... وهكذا كانت روح بلال هي التي تتكلم وتتحدى بلغتها الدم واللحم، كما أن ذلك الصحابي كأنه يتحدى بسبابته المرفوعة الطبيعة البشرية، ويرفع بها في لحظة معينة مصير الدين الجديد، كما انها هي نفسها تتحدث بصوت تلك «المرأة الزانية» التي أقبلت إلى «الرسول» ﷺ لتعلن عن خطيئتها وتطلب إقامة حد الزنا عليها. فالوقائع هذه جميعها تخرج عن معايير الطبيعة..»(٤)

---

١ ـ النساء : ١٢٨. ٢ ـ الحشر : ٩.
٣ ـ التغابن : ١٦. ٤ ـ شروط النهضة لمالك بن نبي:١٠١ ـ ٢٠١ بتصرف.

وبناء على هذا فإن العقيدة الإسلامية بضبطها للغرائز البشرية بالحد من طغيانها، فإنها بالمقابل توجه هـذا الفائض من قوة الغرائز باتجاه القيم الخلقية والمثل العليا التي تجعل لحياة المسلـم هدفاً ومعنى تهون في سبيله التضحيات، الأمر الذي يجعـل من المسلم قوة تتجـاوز المألوف من قوة الإنسـان الطبيعي. وهذا يفسر لنا فـريضة الإسلام على المسلم أن يصمـد أمام عشرة من المشركين في أول الإسلام حيـث تم شحن طاقتـه الإيمانية إلى حدهـا الأعلى أو أن يصمد أمام اثنين من المشركين ــ في حال كون طاقتـه الإيمانية في حدها الأدنــى ـ كما يفسر لنا كثيراً من المواقف التاريخية التي انتصر فيها الإسلام على خصومه مع قلة العدد والعدة، وهو ما عبرت عنه الآيات القرآنية :

﴿يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين، وإن يكـن منكم مائة يغلبوا ألفـاً من الذين كفـروا بأنهم قوم لا يفقهون، الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبـوا مـائتين، وإن يكــن منكـم ألـف يغلبـوا ألفين بـإذن اللــه، واللـه مـع الصابرين﴾(١).﴿... قال الذين يظنون أنهم مـلاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾(٢).

تدافع السنن.. وتنازع الأقدار :

من خلال ما سبق يمكننا القول بأن الحياة البشرية تخضع لسنن كثيرة، وهذه السنن تعتمد في تحققها ونفاذها على عمل الإنسان طبقاً للسنة العامة التي وردت في قوله تعالى : ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾.

وكذلك السنن الكونية الكثيرة تتأثـر بتدخل الإنسان سلباً أو إيجاباً، مما يظن معـه في كثير من الأحيـان أن السنن ربما تعـدلت أو تخلفـت لعدم تـرتب النتائج على الآثار.

والحقيقة أن السنن التي تحكم الحيـاة البشرية أو الحياة الطبيعية أوسع بكثير مما نظن، وأكثر من أن يحيط بها الإنسـان، ومن ثم فكلما تقدم الإنسان

---

١ ـ المائدة : ٦٥ ـ ٦٦.   ٢ ـ البقرة : ٢٤٩.

في اكتشافه لأسرار الحياة البشرية والكونيـة. كلما أدرك جديداً من هذه السنن، وغدا أقدر على تفسير الحوادث والوقائع والاستفادة منها.

إن خضوع الحياة البشرية والكونيـة لهذه السنن الكثيرة التي تتعذر على الحصر، والتي تتحدى جهود البشر في اكتشافها والإحـاطة بها تتزاحم في عملها وتتدافع طبقاً لعمـل الإنسان الذي يخضـع أيضاً لعوامل ودوافـع مختلفة، تؤثر فيه قوة وضعفاً، وتقـدماً وتخلفاً، ومن ثم يتحقق من هذه السنـن ما تكون له الغلبة على غيره بنـاءً على العامـل والدافع الـذي يتغلب في عمـل الإنسان كـذلك تكون الأقدار الإلهية في حالة تنازع طبقاً لتدافع السنن، ثم يتحقق القدر المترتب على السنة الغـالبة. وهكذا فالسنـن جارية لا تتخلف، وإنما يتغلـب بعضـها على بعض بحسب القوة والضعف، ويمكن أن نلاحظ ذلك في كثير مما يجري حولنا من مشاهد وأحداث :

ـ من المعلوم أن قانـون الجاذبية الأرضية يستلزم أن ينجذب إلى الأرض كل ما يقع في نطاق هذه الجاذبية، ولكننا نرى أن الطيور والطائرات وأمثالها لا تنجذب إلى الأرض، وذلك لأنها تخضـع لقانون آخر هو قـانون الطيران، وهكذا فقانون الطيران لم يلغ قانون الجاذبيـة، وإنما تغلب عليه، وإذا ما حدث خلل في الطائر أو الطائرة أضعف هـذا القانون أمام قانون الجاذبية، فـإننا نرى الطائر والطائرة يهويان إلى الأرض لتغلب قانون الجاذبية.

ـ من سنن الإيمان أن ينتصر المسلمون على المشركين، وذلك لما قدمنا من أن الإيمان يرفـع طاقـة المؤمنين إلى ضعف طـاقة الإنسـان غير المسلم في الحد الأدنى، ومع ذلـك فلتحقيق هذه السنة لابـد من مراعاة شروطهـا ومقتضياتها والالتزام بالتوجيهات الصادرة إلى المؤمنين ويمكـن أن نلاحظ في معركة واحدة تحقق هذه السنـة حينما توافرت الشروط والتزم المسلمون بالتـوجيهات، وذلك ما حدث في معـركة أحد حيث انتصر المسلمـون في أول هذه المعركة طبقـاً لوعد الله بنصر المؤمنين، وقد حكاه القرآن الكريم بقوله :

﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بـإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكـم من يريد الدنيا ومنكم من

يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على العالمين﴾ (١).

غير أن مخالفة المسلمين الرماة لأمر النبي ﷺ وتنازعهم فيما بينهم جعل هذه السنة لا تتحقق لفوات الشروط. وهذه الشروط منصوص عليها في مثل قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون. وأطيعوا الله ورسوله، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ (٢).

وهكذا نرى التدافع بين سنن الإيمان وسنن الإنسان، وكيف تغلبت سنة الإيمان أولاً بتحقق شروطها ومن ثم كان القدر نصر المؤمنين، ثم كيف دُفعت سنة الإيمان بسنة الإنسان حينما ضعفت سنة الإيمان بمخالفة الرماة، فكان القدر ما أصاب المؤمنين من القرح والمصيبة.

- ومن الأمثلة الواضحة في تدافع السنن وتنازع الأقدار ما جاء في الحديث الشريف الذي يرويه أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال:

«كان فيمن قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَّ على راهب فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة؟ فقال: لا. فقتله فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة، انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناساً يعبدون الله فاعبدالله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصفَ الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله. وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض

---

١ - آل عمران: ١٥٢.

٢ - الأنفال: ٤٥ - ٤٦.

التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة. قال قتادة : فقال الحسن : ذكر لنا أنه لما أتاه الموت نأى بصدره﴾(١).

وفي رواية البخاري: ... فأوحى الله إلى هذه أن تقربي، وأوحى الله إلى هذه أن تباعدي، وقال قيسوا ما بينهما فوجد إلى هذه أقرب بشبر، فغفر له»(٢). ويتضح من هذا الحديث الشريف التدافع بين سنتين «سنة التوبة» و«سنة ارتهان الإنسان بعمله»، والتنازع بين قدرين استحقاق العذاب واستحقاق المغفرة. فملائكة العذاب تريد أن تقبضه لأنه لم يعمل خيراً قط طبقاً لسنة الله: ﴿كل امرىء بما كسب رهين﴾(٣) ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾(٤) ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾(٥) وملائكة الرحمة ترى أنه جاء تائباً، والتوبة تجبّ ما قبلها طبقاً لسنة الله المتمثلة في قوله تعالى : ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات﴾(٦) فلقد غلبت سنة التوبة سنة العقوبة أو دفع قدر الذنب بقدر التوبة لأن رحمة الله تسبق غضبه»(٧). وهذا يفسر لنا إيحاءه إلى هذه أن تقربي وإيحاءه إلى هذه أن تباعدي حتى وجد أقرب بشبر إلى الأرض التي هو متجه إليها فغفر له. ومثل هذا دفع قدر المرض بقدر التداوي، ودفع قدر الإساءة بقدر الإحسان. وهذا كله يدل على دفع القدر الذي قد وقع واستقر بقدر آخر يرفعه ويزيله.

ـ أما القدر الذي انعقدت أسبابه ـ ولما يقع ـ فإنه يدفع بأسباب أخرى من القدر تقابله فيمتنع وقوعه كدفع العدو بقتاله ودفع الحر والبرد ونحوه ومنه ما جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ : «لا ينفع

---

١ ـ مسلم : ٢١١٨/٤ كتاب التوبة : حديث /٤٦.

٢ ـ البخاري : ٥١٢/٦ ـ كتاب أحاديث الانبياء — حديث رقم /٣٤٧٠ ـ وانظر مسند أحمد : ٧٢/٣.

٣ ـ الطور : ٢١ ٤ ـ المدثر : ٣٨.

٥ ـ النجم : ٣٩. ٦ ـ الشورى : ٢٥.

٧ ـ الحديث في البخاري ـ كتاب التوحيد ـ عن ابي هريرة عن النبي ﷺ قال : لما قضى الله الخلق كتب كتابا عنده : «غلبت ـ و قال ـ سبقت رحمتي غضبي فهو عنده فوق العرش». وكذلك رواه مسلم في التوبة / ١٤ ـ ١٦ وابن ماجة في الزهد : ٣٥ وأحمد في المسند : ٢٤٢/٢ وتكرر سبع مرات.

حذر من قدر، والدعاء ينفع ما لم ينزل القضاء. وإن البلاء والدعاء ليلتقيان بين السماء والأرض فيعتلجان إلى يوم القيامة»(١).

وفي رواية عن عائشة رضي الله عنها : «لا ينفع حذر من قدر، والدعاء ينفع - أحسبه قال - ما لم ينزل القدر، وإن الدعاء ليلقى البلاء فيعتلجان إلى يوم القيامة»(٢).

وفي هذا الحديث دلالة على تنازع الأقدار قبل وقوعها، وأن ذلك سنة جارية إلى يوم القيامة وأن سنة الدعاء تدفع سنة البلاء ويغلب قدر الدعاء قدر البلاء، وذلك لأن ما جعل الله الدعاء سبباً له فهو بمنزلة ما جعل العمل الصالح سبباً له. ولهذا أمر الناس بالدعاء والاستعانة بالله وغير ذلك من الأسباب، ومن قال : أنا لا أدعو ولا أسأل اتكالاً على القدر، كان مخطئاً لأن الله جعل الدعاء والسؤال من الأسباب التي ينال بها مغفرته ورحمته وهداه ونصره ورزقه وإذا قدر للعبد خيراً يناله بالدعاء لم يحصل بدون الدعاء..» (٣).

وهكذا تتدافع السنن وتتنازع الأقدار، وتكون النتائج للسنن الأقوى التي يترتب عليها القدر الغالب، وبمثل هذا الفهم احتج عمر رضي الله عنه على أبي عبيدة حينما قرر عمر عدم الدخول إلى بلاد الشام أثناء وجود الطاعون حيث قال له أبو عبيدة : أتفر يا عمر من قضاء الله وقدره ؟ فقال عمر : نعم أفر من قضاء الله وقدره إلى قضاء الله وقدره.

ويرى ابن القيم أن لا نجاة من الغرق في بحر القدر إلا بركوب سفينة

---

١ - مجمع الزوائد : ٧/٢٠٩، وكشف الأستار - : ٣/٢٩ - وقال الهيثمي : رواه البزار وفيه إبراهيم بن خيثم وهو متروك.

٢ - مجمع الزوائد : ٧/٢٠٩، وكشف الأستار : ٣/٣٠ - وفيه زكريا بن منظور وثقه أحمد ابن صالح المصري، وضعفه الجمهور - ومما يجعل مثل هذا الحديث مقبولاً أن ما جاء به لا يمكن أن يكون للرأي فيه مجال.

٣ - الفتاوى : ٨/ ٦٩ - ٧٠ مع قليل من التصرف.

الأمر. وحينئذ تكون وظيفة هذا الراكب مصادمة أمواج القدر ومعارضتها بعضها ببعض، وإلا هلك، فيرد القدر بالقدر، وهذا سير أرباب العزائم من العارفين. وهو معنى قول الشيخ العارف القدوة عبدالقادر الكيلاني : «الناس إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا، إلا أنا فانفتحت لي فيه روزنة فنازعت أقدار الحق بالحق للحق، والرجل من يكون منازعاً للقدر، لا من يكون مستسلماً للقدر».

ولا تتم مصالح العباد في معاشهم إلا بدفع الأقدار بعضها ببعض فكيف في معادهم ؟ والله تعالى أمر أن تدفع السيئة ـ وهي من قدره ـ بالحسنة ـ وهي من قدره ـ، وكذلك الجوع من قدره، وأمر بدفعه بالأكل الذي هو من قدره، ولو استسلم العبد لقدر الجوع مع قدرته على دفعه بقدر الأكل حتى مات كان عاصياً. وكذلك البرد والحر والعطش، كلها من أقداره. وأمر بدفعها بأقدار تضادها. والدافع والمدفوع والدفع من قدره. وقد أفصح النبي ـ ﷺ ـ عن هذا المعنى كل الإفصاح، إذ قالوا : «يا رسول الله، أرأيت أدوية نتداوى بها، ورقى نسترقي بها، وتُقىً نتقي بها. هل ترد من قدر الله شيئاً ؟ قال : هي من قدر الله» وفي الحديث الآخر «إن الدعاء والبلاء ليعتلجان بين السماء والأرض» وإذا طرق العدو من الكفار بلد الإسلام طرقوه بقدر الله، أفيحل للمسلمين الاستسلام للقدر وترك دفعه بقدر مثله، وهو الجهاد الذي يدفعون به قدر الله بقدره ؟

وكذلك المعصية، إذا قدرت عليك، وفعلتها بالقدر، فادفع موجبها بالتوبة النصوح. وهي من القدر..(١)». فهذا شأن العارفين وشأن الأقدار، لا الاستسلام، وترك الحركة والحيلة، فإنه عجز. والله تعالى يلوم على العجز. فإذا غلب العبد وضاقت به الحيل، ولم يبق له مجال، فهنالك الاستسلام للقدر...(٢)».

---

١ ـ مدارج السالكين : ١ / ١٩٩ ـ ٢٠٠.

٢ ـ مدارج السالكين : ١ / ٢٠٠.

وهكذا نرى أن فكرة «تدافع السنن.. وتنـازع الأقدار» تحل لنا كثيراً من الإشكالات المحيطة بقضية «سنة الله» وقدره كما تكشف لنا سبب تخلف السنة في بعـض الأحيان نتيجـة دفعهـا بسنـة أقوى منهـا، وأن على المسلـم ألاّ يقف مكتوف الأيدي تجاه السنن، وإنما عليه أن يغالبها ويدفع بعضها ببعض.

وكما تتدافع السنن كذلك تتنازع الأقدار المترتبة عليها، وكما تكون نتيجة التدافع للسنة الغالبة، كذلك تكون نتيجة التنازع للقدر الغالب.

خاتمة تلخص البحث

ومن كل ما سبق يمكن أن نقول :

إن «سنة الله» ــ كما وردت في القرآن الكريم ــ هي طريق عـامة يجري بها أمره في عباده. ـ وهي طريق العدل والرحمة ـ وقد تكون شرعية كما تكون كونية تاريخية.

وإن «سنة الله» الشرعية تتمثل في فـروع الشرائع المختلفة الصور المتحدة القصد، والهادفـة إلى تطهير النفس وتـرشيحها للـوصول إلى ثـواب الله تعـالى وجواره. وقـد وردت بهذا المعنى في آيتين فقط في كتـاب الله تعـالى. وإن «سنة الله» الكونية ــ في استعمال القرآن ـ تكاد تكون موقـوفة الاستعمال على سنن التـاريخ المبنيـة على سنـن الاجتماع، ذلك أن التـاريـخ هـو حصيلة التجـارب الإنسانية الطويلة، ومختبر الباحثين والمحللين، الساعين دائماً لاستفادة الدروس والعبر واكتشاف السنن التي تحكم سير الأمـم في تطورها. وإن هذا الاكتشاف يمكن أن يوظف لتوجيه الأحداث الحاضرة والمستقبلية فيوفر على الإنسان كثيراً من الجهود التي يمكن أن تضيع سـدى ـ وقد وردت «سنة الله» بهذا المعنى في أكثر الآيات القـرآنية ـ. ومن سنـن التاريخ التي حظيـت بعناية خاصـة «سنن الأنبياء» والمتابعين لهم مـن أهل الإيمان ذلك أن فترات الأنبياء التـاريخية تمثل الذرى والقمم التي جعلها الله مثلاًأعلى تتطلع البشرية للوصول إليه.

ومـن سنـة اللـه في أنبيـائه ورسله أن يعـرضهـم لاستفـزاز اقـوامهـم فيحـاولون قتلهـم، ولكنهم لا يلبثـون بعد المحـاولة إلا قليـلاً حتى يـأخذهـم سبحانه أخذ عزيز مقتدر.

ومن السنن التـاريخية التي تكرر ورودها في القرآن «سنـة الله في إهلاك المكـذبين» وقد قـص اللـه علينـا قصصهم لنعتبر بها، ولما في الاعتبـار بها مـن حاجتنا إليـه ومصلحتنا، وإنما يكون الاعتبار إذا قسنـا الثانى بالأول ـ وكـانا مشتركين في المقتضى للحكـم ـ فلولا أن في نفوس النـاس من جنس مـا كان في نفوس المكذبين للرسل ـ فرعون ومـن قبله ـ لم يكن بنا حاجة إلى الاعتبار بما لا نشبهه قط.

ومن السنن التـاريخية التي تكرر ورودها في القـرآن ﴿سنة الله في نصر أوليائه على أعدائه﴾ وهي شاملة لأعدائه من المشركين وأهل الكتاب والمنافقين.

ولقد اقترنت «سنـة الله» ـ الكونية التـاريخية ـ بما يفيد ثبـاتها من مثل قوله ﴿فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾ علماً بأن صيغة «سنة الله» لم تستعمل في القرآن إلا في مجال الاجتماع والتاريخ. غير أن بعض الكتاب توسعوا في مفهوم «سنة الله» لتشمل قوانين الكون وطبائع الخلق، ومن ثم فقد جعلوا هذه القوانين والطبائع مشمولـة بالثبات وعدم التبديل والتحويل الواردين خاصـة مع صيغة «سنـة الله». ويرى العـلامة عبـدالحميد الفراهي الهندي أن أول من استعمـل صيغة «سنة الله» بـالمعنى الشامل لطبـائع الخلق كلها هم أصحاب رسائل «إخوان الصفا» ثم تابعهم على ذلك ولي الدين الدهلوي صاحب كتاب «حجة الله البالغـة». كما يذكر ابن تيمية أن السهروردي المقتول ذهب إلى ان العالم لا يتغير.. بل لا تزال الشمـس تطلع وتغرب لأنها عادة الله، وانه احتج على ذلـك بالآيات السابقـة التي تنص على أن «سنة اللـه» غير قابلة للتغيير والتبديل.

وقد علل الفراهي ما ذهب إليه القائلون بأن طبائع الخلق من «سنة الله» وأنها ثابتة بعدة ظنون : فقد ظنوا أن التبديل في الخلق محال لقوله تعالى : ﴿لا تبديل لخلق الله﴾. وظنوا أن قـوله : ﴿لاتبديل لخلق الله﴾ كقوله : ﴿ولن تجد

لسنة الله تبديلا﴾. وظنوا أن طبائع الخلق كلها تدخل تحت «سنة الله». وظنوا أن طبائع الخلق ثابتة لما علموا من التجربة أن الأشياء لا تتحول عن آثارها.

وقد رد الفراهي هذه الظنون واحدة واحدة ـ كما سبق شرحه وبيانه ـ.

وأما ابن تيمية فقد عرض لاحتجاج السهروردي المقتول وأمثاله من المتفلسفة بآيات السنن على صحة ماذهبوا إليه من اعتبار العادات الطبيعية من سنن الله الثابتة وأبطل مزاعمهم، واعتبر احتجاجهم بالقرآن نوعاً من تحريف الكلم عن مواضعه، وأن القرآن يصرح بنقيض مذهبهم في جميع المواضع.

أما علماؤنا المحدثون والمعاصرون فقد مال معظمهم إلى تعميم صيغة «سنة الله» بحيث تكون شاملة لسنن التاريخ والاجتماع، وقوانين الكون، كما أنهم قالوا بثبات السنن وترتب النتائج على الأسباب، غير أن تعبيرهم عن هذه الحقيقة لم يكن متساوياً، بل إن بعضهم كانت له تحفظاته التي تشير إلى ملاحظات خاصة أو استثناءات. ومن ثم نرى أنه من المناسب الإشارة إلى شيء من هذه التحفظات حسبما وردت في أقوالهم.

من القائلين بتوسيع مفهوم السنن الإلهية وشمولها وثباتها دون تحفظات محمد رشيد رضا وذلك في تفسيره «المنار» حيث يكثر من ذكر السنن دون تفريق بين سنن الاجتماع والتاريخ أو قوانين الكون وطبائع الخلق.

أما سيد قطب فإنه وإن كان يستعمل صيغة «سنة الله» بالمعنى الشامل فإنه يتحفظ على آلية السنن وحتميتها بما يتناسب مع طلاقة المشيئة الإلهية حيث يقول : «فليست هناك جبرية آلية في الخلق والإنشاء، ولا في الحركة والحدث، والنواميس التي يراها الناس مطردة في الكون ـ بوجه عام ـ ليست قوانين آلية أنشأها الله وسلطها لتعمل بذاتها آلياً وحتمياً، ولكنها تطرد على الجملة، لأن قدر الله في شأنها يطرد في غير جبرية آلية فيها، وفي غير حتمية ـ على الله سبحانه ـ في اطرادها. إنما هي مشيئته وحكمته بهذا، فيجري قدره بما يشاء، وهكذا تقع المعجزات الخارقة لما يسمى بالقوانين الطبيعية».

أما الأستاذ محمد قطب فإنه يفرق في التسمية بين نوعين من السنن :

الإلهية : وهي التي تحكم الحياة البشرية والكونية : وهي القوانين الطبيعية التي تحكم المادة. وأن الانتظام والانضباط موجود في كلا النوعين بمرتبة واحدة. لكنه يرى أن القوانين الكونية قد يخرقها الله لحكمة يريدها. وكأنه بذلك يريد تفسير الخوارق والمعجزات. أما السنن الإلهية التي تحكم الحياة البشرية فقد ثبتها الله، ومن ثم فلا تخضع لهذا الاستثناء. كذلك يرى الأستاذ محمد قطب أن هناك سننا جارية مطردة خاصة بالمؤمنين، وسننا جارية خاصة بالكافرين، ولكنها أقل في مساحتها من السنن العامة التي تجري على الجنس البشري بمؤمنيه وكافريه.

غير أن السنة الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل ولا تتحول هي سنن التاريخ والاجتماع. ومنها سنة الله في نصر أوليائه وخذلان أعدائه. وهذه الحقيقة بالنسبة لهذه السنة موضع اتفاق وإجماع عند من تكلموا في هذا الموضوع من المتقدمين والمتأخرين أما سنن الكون وطبائع الخلق : فإن الذين جعلوها مشمولة بـ «سنة الله» التي لا تتبدل ولا تتحول «سنة التاريخ والاجتماع» فقد قالوا بلزومها وثباتها لا نضوائها تحت اللازم الثابت. غير أن بعضهم اضطر إلى تقييد ذلك بطلاقة المشيئة الإلهية ليفسر الاستثناء الذي يخرق السنن الكونية كالمعجزات، وربما اضطر البعض الآخر إلى التعسف في التأويل أو إنكار المعجزات ليستقيم له ما ذهب إليه من اللزوم. وربما يرى آخرون أن التغيير والتبديل الخارق للسنة دليل على أن السنة لم تتحقق لفقد شرط أو وجود مانع، ومن ثم فلم تكن سنة لفوات الشرط أو وجود المانع. كما أن هناك من يرى أن مثل هذه السنن تفيد العموم ولا تفيد اللزوم.

ومما يساعد، على فهم «سنة الله» الاجتماعية والتاريخية والتي يكون الإنسان عاملاً إيجابياً فيها ملاحظة الفرق بين الإنسان الفطري كما خلقه الله، والإنسان المسلم المنضبط بشريعة الله والذي تخضعه العقيدة الإسلامية إلى عملية شرطية من شأنها الحد من طغيان الغرائز وتنظيمها، وفي هذه الحالة يتحرر المسلم جزئياً من القانون الطبيعي، ويتجه بالفائض من قوة الغرائز المنضبطة تجاه القيم الخلقية والمثل العليا، والتي تجعل لحياة المسلم هدفاً

ومعنى تهون في سبيله التضحيات، ويغدو المسلم بفضلها قوة تتجاوز المألوف من قوة الإنسان الطبيعي. وقد شرحنا هذه الفكرة فيما تقدم تحت عنوان «سنن الإنسان.. وسنن الإيمان».

كذلك لابد من الانتباه إلى أن الحياة البشرية تخضع لسنن كثيرة، وهذه السنن تتحقق وتنفذ من خلال عمل الإنسان طبقاً للسنة الإلهية العامة ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ كما أن هذه السنن تتزاحم في عملها وتتدافع طبقاً لعمل الإنسان الذي يخضع أيضاً لعوامل ودوافع مختلفة. ومن ثم يتحقق من هذه السنن ما تكون له الغلبة على غيره بناءً على العامل والدافع الذي يتغلب في عمل الإنسان، كذلك تكون الأقدار في حال تنازع طبقاً لتدافع السنن، ثم يتحقق القدر المترتب على السنة الغالبة. وهكذا فالسنن جارية لا تتخلف، وإنما يتغلب بعضها على بعض بحسب القوة والضعف. وقد شرحنا هذه الفكرة فيما سبق تحت عنوان «تدافع السنن وتنازع الأقدار».

وعلى الرغم من كل ما قيل في شأن السنن الكونية من لزوم أو عموم، فلابد لنا من العمل على أساسها، ولا ينبغي لنا إهمالها بحجة عدم حتميتها، وبخاصة إذا علمنا أن المعجزات التي تخرق السنن الكونية كانت استثناءً في حياة الناس لإثبات النبوات، وأن النبوات قد انتهت بمجيء خاتم النبيين، مما يجعل مثل هذا الاستثناء غير وارد حاضراً ومستقبلاً، كما أن إهمال هذه السنن لن يؤدي إلا إلى فوضى وعدم استقرار. وإذا كان الإسلام يوجب العمل بغلبة الظن في الأحكام الشرعية، فمن باب أولى أن يوجبه في السنن الكونية التي قلنا بأنها تفيد العموم ولا تفيد اللزوم.

ـ وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ـ

المصادر والمراجع

١ ـ البحر المحيط ـ لأبي حيان الأندلسي ـ مكتبة ومطابع النصر الحديثة ـ الرياض مطبعة السعادة بالقاهرة.

٢ ـ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ـ للفيروز أبادي ـ تحقيق محمد علي النجار ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

٣ ـ تفسير المنار ـ لمحمد رشيد رضا ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٤ ـ جامع الرسائل ـ لابن تيمية ـ تحقيق : د. محمد رشاد سالم مطبعة المدنى ١٣٨٩ ـ ١٩٦٩.

٥ ـ حجة الله البالغة ـ لولي الدين الدهلوي ـ دار المعرفة ـ بيروت لبنان.

٦ ـ حول التفسير الإسلامي للتاريخ ـ لمحمد قطب ـ الطبعة الأولى.

٧ ـ الرد على المنطقيين ـ لابن تيمية ـ طبعة لاهور ـ باكستان.

٨ ـ زاد المسير ـ لابن الجوزي ـ المكتب الإسلامي دمشق ١٩٦٤.

٩ ـ سنن ابن ماجة ـ ابن ماجة ـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ـ نسخة مصورة.

١٠ ـ شروط النهضة ـ لمالك بن بني ـ دار الفكر ـ الطبعة الثالثة.

١١ ـ صحيح البخاري مع شرحه فتح الباري ـ الطبعة السلفية.

١٢ ـ صحيح مسلم ـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار إحياء التراث ـ بيروت ـ ط ٢ ١٩٧٢.

١٣ ـ الفتاوي ـ لابن تيمية ـ طبعة الدار العربية ـ بيروت لبنان.

١٤ ـ في ظلال القرآن ـ لسيد قطب ـ دار الشروق ١٤٠٠ه ـ ١٩٨٠م.

١٥ ـ القائد الى عيون العقائد ـ لعبد الحميد الفراهي ـ الدائرة الحميدية ومكتبتها ـ الهند ـ ١٩٥٩هـ ـ ١٩٧٥م.

١٦ ـ القرآن الكريم.

١٧ ـ كشف الأستار للهيثمي ــ تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي ـ مؤسسة الرسالة.

١٨ ـ مجمع الزوائد ـ لنور الدين الهيثمي ـ مكتبة القدسي ـ القاهرة.

١٩ ـ مدارج السالكين ـ لابن القيم ـ تحقيق محمد حامد الفقي ــ دار الفكر العربي.

٢٠ ـ مسند أحمد ـ لأحمد بن حنبل ـ الطبعة الميمنية الأولى ١٣١٣هـ.

٢١ ـ معجم مقاييس اللغة ـ لأحمد بن فارس ـ تحقيق عبدالسلام هارون ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة ١٤٠٢ ـ ١٩٨١.

٢٢ ـ مفردات ألفاظ القرآن ـ للراغب الأصفهاني ـ تحقيق صفوان داودي ـ دار القلم ـ الدار الشامية ١٩٩٢م.

٢٣ ـ مفردات ألفاظ القرآن ـ لعبدالحميد الفراهي ـ الدار الحميدية ومكتبتها.

٢٤ ـ مقومات التصور الإسلامي ـ لسيد قطب ـ دار الشروق.

٢٥ ـ ملاك التأويل ـ لأبي جعفر بن الزبير الغرناطي ـ تحقيق سعيد الفلاح ـ دار الغرب الإسلامي.